أين صنيعهم من صنيع أبي الدحداح؟

كان حصاداً مباركاً ما وقفتنا عليه آنفاً، تلكم الآيات الثلاث من سورة البقرة التي بدئت بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ...﴾ وختمت بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

أجل كان حصاداً مباركاً دلَّ ـ فيما دل ـ على سمتين بارزتين من سمات اليهود هما: الجبن والبخل، ولقد ساعد على هذا الفهم، ما يشير إليه ورود آيتي القتال والإنفاق في سبيل الله؛ بعد الحديث عن تلكم الألوف من بني إسرائيل الذين فروا من الموت، فعوقبوا بنقيض ما أرادوا. **ولا يغرنك ما يُرى من غطرسة اليهود وصلفهم اليوم، فالحقبة التي تمر بعلاقتهم بأمة الإسلام حقبة شاذة مرتبطة ارتباطا جذرياً بعدم الوجود الحقيقي للمسلمين، ولو كان للمسلمين ـ وهم أمة العقيدة والجهاد ـ وجود ذاتي على الوجه الذي تقتضيه طاعة الله ورسوله، لرأيت الحقيقة في خصال اليهود التي أخبر عنها القرآن الكريم عارية لا تحجبها عن الأنظار غاشية زيف ولا تمويه.**

ومهما يكن من أمر: فإن تدبُّر آيات الكتاب الكريم التي تسوق العبرة في صنيع بني إسرائيل وغيرهم من الأعداء، كيما يكون المسلمون على بينة من أمرهم في الأحوال جميعها من السلم والحرب، وبخاصة في علاقتهم بهؤلاء القوم ومن لفَّ لفَّهم؛ إن تدبر آيات الكتاب على هذا الصعيد يتأكد وجوبه كلما حزب الأمر واشتدت الحاجة إلى المنار الهادي يضيء السبيل ويضع حداً للمتاهة والضياع.

هذا: وأنت واجد أن قول الله جل ثناوه: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ كان مصدر إثارة لكوامن البخل الدفين عند اليهود والحرص على المال دونما حدود أو قيود؛ فانطلقوا يسيئون الأدب مع الله وينطقون بالهجر من القول، وقد أشرت سابقا إلى ما روى ابن مردويه وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ قالت اليهود: يا محمد أافتقر ربك فسأل عباده القرض؟ فأنزل الله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أنه حدثه عن ابن عباس قال: (دخل أبو بكر الصديق بيت المدارس، فوجد من يهود ناساً كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له: فنحاص، وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حبر يقال له أشيع، فقال له أبو بكر: ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول من عند الله قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، ينهانا عن الربا ويعطينا، ولو كان غنيا، ما أعطانا الربا. فغضب أبو بكر – رضي الله عنه –، فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً وقال: والذي نفسي بيده لولا الذي بيننا وبينك من العهد، لضربت عنقك يا عدو الله، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا

محمد أبصر ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله ﷺ ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر؟ فقال: يا رسول الله إن عدوَّ الله قال قولاً عظيماً، يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غضبتُ لله مما قال، فضربت وجهه، فجحد فنحاصُ ذلك وقال: ما قلت ذلك، فأنزل الله فيما قال فنحاص: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾).

ويبدو أن هذه القولة الظالمة التالفة، قالها غير واحد من اليهود، فقد روى الطبري بسنده عن الحسن البصري أنه قال: لما نزلت: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قال: عجبت اليهود فقالت: إن الله فقير يستقرض فنزلت ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾.

كما روى بسنده عن قتادة أنه قال: ذكر لنا أنها نزلت في حُيي بن أخطب لما أنزل الله ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ قال: يستقرضنا ربنا، إنما يستقرض الفقير الغني.

قال أبو جعفر رحمه الله: فتأويل الآية إذاً (سنكتب ما قالوا من الإفك والفرية على ربهم، وقتلهم الأنبياء بغير حق).

هذا وقد جنح الإمام الطبري إلى أن قوله تعالى: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران: ١٨٠] يدخل فيه دخولاً أوليًّا اليهود الذين جاهروا الله العداء

عندما جاءهم الأمر بالزكاة، فوصفوه سبحانه بالفقر. قال عند تفسير هذه الآية (فوصف جل ثناؤه قول المشركين من اليهود الذي زعموا عند أمر الله إياهم بالزكاة أن الله فقير) ذلكم هو موقف أعداء الله اليهود من شرعة الله وأحكامه، ولا يكتفون بالمخالفة والعصيان، بل يتجاوزون ذلك إلى مقالة السوء والإفك الأسود والعياذ بالله.

وعلى النقيض: ما نجد من استجابة المسلمين لما جاء من ترغيب القرآن في الإنفاق في سبيل الله؛ ففي الوقت الذي كان انعكاس قوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وما شرع في المال من الحقوق المالية عى نفسية اليهود المغرقة في المادية والشح أن قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء. تطالعنا المصادر الموثقة بما روى ابن أبي حاتم بسنده عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «لما نزلت ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري: «يا رسول الله وإن الله عز وجل ليريد منا القرض؟ قال: نعم يا أبا الدحداح، قال: أرني يدك يا رسول الله، قال: فناوله يده، قال: فإني قد أقرضت ربي عز وجل حائطي قال: وله حائط فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها، قال: فجاء أبو الدحداح فناداها يا أم الدحداح، قالت: لبيك، اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل».

وأدَع للقارئ الكريم أن يذهب ذهنه كل مذهب على صعيد التعليق وما يمكن أن يدعى ـ مجازاً ـ بالمقارنة.. وأين الثرى من الثريا؟ والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

نقض العهد والنكوص عن القتال

كانت إيحاءات إيمانية تربوية كريمة تلك التي فاضت بها الآيات الثالثة والأربعون والرابعة والأربعون والخامسة والأربعون بعد المائتين من سورة البقرة والتي استنرنا بهداها فيما مضى. أجل: كانت إيحاءات تربوية كريمة تلقفها المسلمون وهم ينشئون المجتمع المسلم القائم على شريعة الله، ينشؤونه واقعا ينبض بالحركة والحياة، غير مقطوع عن العبرة بالماضي، ولا متجافٍ مع الدروس التي تستخلص من تاريخ بني إسرائيلَ وما حصل لهم من الوقائع.

والحق أن الإفادة مما حصل للماضين وخصوصاً بني إسرائيل عبر تحركهم في مواجهة رسالة السماء، ذخيرة لا تقتصر على حِقبة زمنية في حياة المسلمين، بل هي للجيل الأول الذي تولى ـ بعون الله ـ إنشاء الواقع المسلم، وهي في الوقت نفسه لكل الأجيال المتلاحقة، إنها ليومنا ولِغدنا كما كانت لأمسنا، يوم شهدت الإنسانية تنزل الوحي على الرسول عليه الصلاة والسلام برسالة الإسلام، بل إن صلتها بواقع الأمة اليوم لا تخفى على ذي بصيرة.

وبعد الذي رأينا من تلك الإيحاءات التي كان منها، أن على المسلمين أن يعتبروا بما حدث لأولئك القوم من بني إسرائيل الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فلم يغن عنهم الفرار من الموت شيئاً.

أجل: أن يعتبر المسلمون فلا يهنوا ولا يتخلفوا عن الجهاد حباً في

الحياة، ولا يهابوا الموت في سبيل الله؛ فالأجل واحد لا يقربه إقدام، ولا يؤخره إحجام، ولا ملجأ من الله إلا إليه، والأمور مقضية عنده سبحانه في كتاب مبين ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ ﴾.

[البقرة: ٢٤٤].

كما أن على المسلمين أن يبذلوا المال في سبيل الله، ولا يتخلفوا عن الإنفاق حرصا على المال، فالأرزاق بيد الله، كما أن الآجال بيده سبحانه، والإنفاق في سبيل الله قرض لله، وهو الغني، يضاعفه للمقرض أضعافاً كثيرة ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

ونتابع الرحلة المباركة مع سورة البقرة في الحديث عن بني إسرائيل، لنجد الآيات بدءاً من الآية السادسة والأربعين بعد المائتين تقص علينا خبر حادثة أخرى مثقلة بالعظات والعبر؛ ذلكم قول الله جلَّ وعز ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ ﴾.

[البقرة: ٢٤٦]

إنها حادثة أخرى لبني إسرائيل تحمل تجربة ذات دلالة لمن يعقل ويتبصَّر؛ وقعت لهم من بعد موسى عليه السلام، وذلك بعد أن ضاع ملكهم، ووقعوا في شرك الذل لأعدائهم، وذاقوا الكثير من الويل، بسبب

نقضهم المواثيق، وانحرافهم عن هدي الله القويم... فقد تقدم الملأ من بني إسرائيل من ذوي الرأي والمكانة فيهم، إلى نبي لهم بعد أن دعاهم إلى الله وتوحيده في ذلك الزمان.. تقدموا إليه طالبين أن يختار لهم ملكاً يقودهم إلى المعركة مع أعداء دينهم، كي يقاتلوا في سبيل الله، وكان أعداؤهم ـ كما أسلفنا ـ قد سلبوا ملكهم وأموالهم، ومعها مخلفات أنبيائهم من آل موسى وآل هارون.

وأراد نبيهم أن يستوثق من ثبات نيتهم، وجديتهم فيما يطلبون من القتال فقال لهم: هل عسيتم إن كتب عليكم القتال، فأقام الله لكم ملكاً، ألاَّ تقاتلوا وتفوا بما التزمتم من القتال معه؟ ذلك لأنه إذا تقرر القتال، فهو فريضة مكتوبة، لا سبيل إلى النكول عنها. وهنا ذكروا مرة أخرى ما نالهم من أعدائهم في الماضي، حيث أخذت البلاد وسبيت الأولاد، وذلك من الحوافز التي تجعل القتال أمراً متيقناً لا تردد فيه. عند ذلك اشتدت حماستهم ـ بحسب الظاهر ـ للمواجهة واستنكروا ما قاله النبي لهم، فقالوا: ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا؟﴾.

ولكن ما لبثت فورة الحماسة أن همدت عند الاختبار الحقيقي، وحصل ما توقع النبي، فإن كثرة بني إسرائيل هؤلاء، عندما استجيب لطلبهم وكتب عليهم القتال؛ نكصوا على أعقابهم وتولوا مخالفين التزامهم، تاركين دعوى الرغبة في قتال العدو رماداً تذروه الرياح. ذلك ما أخبر عنه القرآن الكريم في ختام الآية التي نحن بصددها فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

وهنا يطلعنا الكتاب الكريم على سمة خاصة من سمات بني إسرائيل في نقض العهد بلا حياء، والنكث بالوعد، دونما شعور بالمسؤولية، وعاقبة تفرق الكلمة، ثم في مداومة التفلت من الطاعة والنكوص عن التكليف، والتولي عن الحق الذي قامت الأدلة كلها عليه، وأقاموا الدنيا وأقعدوها مدعين تأييده والالتزام به.

ولقد أنكر الله عليهم ذلك، وحكم على ما صنعوه في التولي عن القتال بعد أن كتب عليهم، بأنه ظلم، وتوعدهم بالعقوبة على هذا الظلم. لقد ظلموا أنفسهم، وظلموا نبيهم، وظلموا الحق الذي خذلوه، وهم يعرفون أنه الحق، كل أولئك وهم يدعون أنهم أهل الحق، وأنهم حريصون على الجهاد في سبيل الله ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ عليم بهم يجزيهم بظلمهم ـ حيث خانوا العهد ونكلوا عن الجهاد ـ أسوأ مصير في الدنيا والآخرة.

ألا إن في هذا الذي تحدث عنه القرآن عن بني إسرائيل، لعظةً بالغة يفترض أن يتدبرها المسلمون، كيما يسهم هذ التدبر في تعليل الواقع من حيث العلاقة باليهود، والتبصُّر بأسبابه، ثم في المحاولة الجادة لتغييره بإذن الله، وعندها يفرح المؤمنون بنصر الله، ويتكشف لمن كان على بصره غشاوة، أن الحقائق القرآنية هي الحقائق التي لا يعتريها التحويل أو التبديل، لأنها من تنزيل الحكيم الحميد.

ولعل من الخير أن أذكِّر بالآية الكريمة مرة أخرى حيث يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ

لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ ﴾ والحمد لله الذي جعل في قصصهم عبرة لأولي الألباب.

يتبدلون اللجاجة بالطاعة

كانت لنا آنفاً وقفة متأملة عند الآية السادسة والأربعين بعد المائتين من سورة البقرة، التي كشفت من خلال واقعة عملية حدثت لملأ من بني إسرائيل عن سمة من سمات هؤلاء الفئام من البشر وهي: نقض العهد والنكث بالوعد، والتولي من ساحة الواجب، تفلتاً من الطاعة، ونكوصاً عن التكليف؛ فقد تولوا عن القتال إلا قليلاً منهم، بعد أن عاهدوا نبيهم عليه السلام بحملة شديدة ودعوى عريضة، الأمر الذي كان السبب في الحكم عليهم هنا بأنهم ظالمون.. ظالمون لأنفسهم، ظالمون لنبيهم، ظالمون للحق الذي يزعمون أبداً أنهم من أنصاره، ويدَّعون حرصهم على القتال في سبيل الله من أجل نصرته في مواجهة الباطل.

والآية الكريمة التي نعنيها، والتي كشفت عن ذلك بوضوح تام، هي قول الله تبارك وتعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ الآية.

ونتابع الرحلة مع الكلمة القرآنية السخية بالعطاء، لنرى ما آل إليه الأمر فيما بعد، وكيف كان موقف القلة التي ثبتت على إرادة القتال، هل تابعت الطريق، أم تعثرت فيما بعد؟ ها نحن أولاء نقرأ فيما جاء بعد الآية السابقة قول الله تبارك وتعالى: ﴿**وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً**

مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ [البقرة: ٢٤٧].

أرأيت إلى هذه اللجاجة والجدل العقيم، تلكم واحدة من سمات بني إسرائيل أيضاً بدت من خلال هذه الحادثة، كما بدت من خلال عدد من الوقائع والحوادث.

لقد كان مطلبهم من نبيهم أن يبعث لهم ملكا يقاتلون في سبيل الله تحت لوائه. إنهم يريدون ـ على زعمهم ـ أن يقاتلوا في سبيل الله، ويريدون أن يكونوا تحت لواء الملك الذي طلبوا من النبي أن يبعثه لهم **﴿قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾** ولكن هاهم أولاء يركبون متن اللجاجة، فينغضون رؤوسهم، ويلوون أعناقهم، ويجادلون فيما اختار الله لهم كما أخبرهم نبيهم. فلما قال لهم نبيهم: إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً استنكروا أن يكون طالوت ـ الذي اختاره الله لهم ـ ملكاً عليهم، ولمَ هذه المزاحمة الباردة لاختيار الله عز وجل؟ لأنهم ـ علىٰ زعمهم ـ أحق بالملك منه بالوراثة، فهو واحد من أجنادهم، وليس من بيت الملك فيهم. وفي الوقت نفسه لم يؤت سعةً من المال تعينه في منصبه، وتتيح لهم التغاضي عن أحقية الوراثة. **إنهم لا ينظرون إلى القضية من خلال أمر الله، وطاعة نبيهم، والوفاء بما قطعوا على أنفسهم من عهود، ولكنهم ينظرون من خلال التفلُّت المبطَّن من الطاعة، والحرص على الموازين الجاهلية التي ضربت على قلوبهم، وسخرت عقولهم للتنطع والهوى.**

وهكذا استبدلوا اللجاجة والمواربة والتعنت، بطاعة نبيهم فيما

جاءهم من أمر الله، فقالوا بشأن طالوت: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾.

لقد كان الأولى بهم، طاعة وقول معروف، ولكنهم لم يفعلوا.. على أن النبي لم يترك الأمر في حدود ما ينبغي من التسليم المطلق دون تعليل.. ولكنه كشف لهم عن أحقية طالوت الذاتية وعن حكمة الله في اختياره لهم، ذلكم ما جاء في قول الله جل شأنه في بيان ذلك: ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ فهو سبحانه أعلم بما فيه المصلحة والخير لعباده، فقد اصطفاه عليهم واختاره لهم، هذه واحدة، وزاده بسطة في العلم والجسم، وهذه أخرى، والثالثة، أن الله يؤتي ملكه من يشاء.

أين الذي أرادوه من المعايير، من هذا الذي اقتضت حكمة الله أن يكون؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾. والأمر قبل ذلك وبعده، لله سبحانه، فهو مالك الملك، وصاحب التصرف الحكيم في ملكه لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون. ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ واسع الفضل يختص برحمته من يشاء، ليس لفضله حد، ولا لأحد عليه سلطان، وهو العليم الذي يعلم الخير أين يكون وبم يكون، ويعلم من يستحق ومن لا يستحق، ويعلم كيف توضع الأمور مواضعها...

وإذا كان الأمر كذلك، فما على العباد إلا الطاعة والامتثال، ولكن ذاك الملأ من بني إسرائيل أعرضوا وسلكوا سبيل التعنُّت والمراء. ولقد كان

من حكمة الله وسعة رحمته، أنه على الرغم مما بدر من هؤلاء من اللجاجة والجدال فيما اختار ـ جل شأنه لهم ـ شاء سبحانه أن يقدم لهم النبي ما يتسق مع ماديتهم المفرطة، التي تتطلع دائماً إلى الدليل المادي المحسَّ، إذ لا بد لهم من أمر خارق للعادة، يحرك كوامن الإيمان في القلوب، ويردها إلى الثقة واليقين، كيما تستطيع المتابعة وتحمل أعباء الطريق؛ ذلكم ما جاء في قول الله جلَّ وعز: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة: ٢٤٨].

إنها خارقة تحمل التكريم لطالوت، بأن يرد الله عليهم ببركة ملكه فيهم، ما سلبه منهم الأعداء، من المقدسات الممثلة في التابوت الذي يحفظون فيه مخلفات أنبيائهم من آل موسى وآل هارون. وقيل: كانت فيه نسخة الألواح التي أعطاها الله لموسى على الطور. قال الحافظ ابن كثير في تفسير الآية: (يقول لهم نبيهم إن علامة بركة ملك طالوت عليكم، أن يرد الله عليكم التابوت الذي كان أخذ منكم. وفي هذا التابوت سكينة من ربكم ووقار وجلال ورحمة وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة).

هكذا حمل لهم نبيهم آية من الله، علامة من الله أن تقع تلك الخارقة ويشهدوها، وهي مجيء التابوت بما فيه، تحمله الملائكة، فتفيض على قلوبهم السكينة والرضى، قال ابن جريج: قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض، حتى وضعته بين يدي طالوت، والناس

ينظرون. لذلك كان مما قاله النبي لهم: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إن هذه الآية تكفي دلالة قاطعة على بالغ حكمة الله، وصدق اختياره لطالوت إن كنتم حقاً مؤمنين.

والناظر في السياق، يبدو له أن الخارقة قد وقعت كما أراد الله تبارك وتعالى، فانتهى القوم منها إلى اليقين، وتوجهوا مع طالوت للقتال. ولله عاقبة الأمور.

فشربوا منه إلا قليلاً منهم

وقفتنا الآيتان السابعة والأربعون بعد المائتين والتي تليها من سورة البقرة، على ما وقع من بني إسرائيل من لجاجة في شأن طالوت الذي اختاره الله لهم ملكا يقاتلون معه في سبيل الله، وكيف أن نبيهم أقام عليهم الحجة التي تدفع ما توهموه مسوغاً لرفضهم الانقياد والرضى بطالوت، وانتهى بنا المطاف إلى ما كشفت عنه ثانية الآيتين، وهي الآية الثامنة والأربعون بعد المائتين، من أن النبي بين لهم أن العلامة الدالة على صحة ملكه، وحكمة الله البالغة في اختياره، أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة، وإن في هذه الخارقة دلالة قاطعة على صدق اختيار الله لطالوت إن كنتم مؤمنين.

وقد وقعت تلك الخارقة، كما دل على دلك سياق الآيات، وكما روي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

ومع عطاء تلكم الآيات التي تكشف عن بعض من سمات بني إسرائيل، نتابع رحلتنا بدءاً بما جاء في الآية التاسعة والأربعين بعد المائتين من قول الله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً

﴿بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩]. بعد تلك الوقائع التي جرت والاختبارات التي تعرَّض لها القوم، أعد طالوت جيشه من أولئك القلة الذين لم يتولَّوا عن فريضة الجهاد، ولم ينقلبوا على أعقابهم خائنين للعهد مع نبيهم من أول الطريق.

ومن الواضح هنا أن النقلة جاءت مباشرة من قوله تعالى في ختام الآية السابقة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله جل شأنه في الآية التي تلي: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ...﴾ الآية. وذلك على طريقة السياق القرآني في سياقه القصص وأسلوبه الفريد في العرض والأداء، حيث تراه هنا يترك فجوة بين المشهدين؛ إذ يطوي ما يبْدو جمالُ التعبير والسموُّ البلاغي في طيِّه، فيعرض المشهد الثاني مباشرة ـ كما يقول صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ وطالوت خارج بالجنود. ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾.

لقد أراد طالوت حين خرج في جنوده ومن أطاعه من ملأ بني إسرائيل الذين يريد أن يواجه بهم ـ وقد ذاقوا الهزيمة والذل مرة بعد مرة ـ أولئك الأعداء الذين أذلوهم وسلبوهم مقدساتهم، أراد أن يختبر مقدار احتمالهم فَطْمَ أنفسهم عما يشتهون، ومدى استعدادهم للعطاء في مواجهة المشقة والابتلاء.

فالقادر على أن يكون له سلطان على نفسه، يخضعها للإرادة ويَدينها إن حادت عن الطريق السوي، في استعلاء على الضرورات والحاجات، وقدرة

على احتمال المشاق وما يولده الابتلاء من مصاعب... القادر على ذلك يكون - بإذن الله - قادراً على مواجهة العدو والانتصار عليه.

لقد قال طالوت للجنود لما فصل بهم وكانوا عطاشاً ـ كما تقول بعض الرويات ـ: إن الله مبتليكم ومختبركم بنهر. وهنا تبرز صورة الاختبار، فمن شرب منه فليس مني، أي فلا يصحبني اليوم في هذا الوجه، لأنه ليس من أهل ولايتي ولا طاعتي، ومن لم يطعمه فإنه مني، إلا من اغترف غرفة بيده أي فلا بأس عليه.

لقد واجههم ـ وهم في الطريق إلى عدوهم بهذا اللون من الاختبار ـ ليعلم من يصبر معه ويقوى على الاحتمال، ممن ينقلب على عقبيه، فيضعف أمام الرغبة، ويؤثر العافية. وكانت النتيجة ما أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «من اغترف بيده رَوي ومن شرب منه لم يرو». إنها تجربة تفيض بالتمحيص، والكشف عمن يصلحون للمهمة الملقاة على عاتق طالوت وعاتقهم، ممن لا يصلحون لذلك.

فالذين اغترف من يريد منهم، غرفة بيده، كان لهم أن بلَّ الكفُّ من الماء ظمأهم، ولكن ذلك لا يشعر بالرغبة في التخلف.. أما أولئك الذين شربوا بعد كل الذي حصل من التنبيه والإنذار: فقد حكموا على أنفسهم بأنهم لا يصلحون لحمل العبء.. **لقد سقطوا في الامتحان، وكان من الخير أن انفصلوا ـ على كثرتهم ـ عن الجيش الزاحف، لأن مثل هؤلاء لا**

يزيدون الصف إلا تشتتاً وخبالاً. أخرج الطبري بسنده عن البراء بن عازب قال: «كنا نتحدث أن أصحاب محمد ﷺ الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر، على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، وما جازه معه إلا مؤمن» ورواه البخاري عن عبد الله ابن رجاء عن إسرائيل بن يونس عن أبي إسحاق عن جده البراء بنحوه، كما رواه الإمام أحمد في سنده ونسبه السيوطي لابن أبي شيبة وعبد ابن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل، ولهذا قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ**﴾ أي استقلوا أنفسهم وهم بهذا العدد القليل عن لقاء عدوهم لكثرتهم.. فشجعهم ـ كما يقول الحافظ ابن كثير ـ علماؤهم العاملون بأن وعد الله حق، فإن النصر من عند الله وليس عن كثرة عدد. ولهذا قالوا: ﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾.

غلبة الفئة القليلة بإذن الله

في صفحات قريبات، وقفتنا آيات من سورة البقرة، بدءاً من الآية السادسة والأربعين بعد المائتين، على بعضٍ من سمات بني إسرائيل في حبهم للّجاجة والجدل العقيم في أحكام دينهم، هروباً من الواجب، وفي خيانتهم العهود والمواثيق التي يقطعونها على أنفسهم. ومن ذلك ما قطعوه على أنفسهم لنبي لهم من دعوى الرغبة في الجهاد تحت راية ملك يُختار لهم، يضاف إلى ذلك: طلبهم للعافية من تحمل للمسؤولية وتفضيلهم شهوات أنفسهم، على ما يقتضيه العمل والجهاد؛ فهم لم يصبروا على الامتحان ـ إلا قليلاً منهم ـ وترتب على ذلك ما ترتب من نتائج..

وقد وضح ذلك كله، وتبيَّنت تلك السمات والخلائق من خلال الوقائع العملية والتجربة، حيث لم تبق إلا الفئة القليلة التي واتاها النصر على العدو.. وقد جاء الإعلان عن ذلك في قول الله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...**﴾ الآية.

هكذا بعد مراحل التجربة، وسقوط الأكثرين في الامتحان، وبقاء القلة المؤمنة، رأى هؤلاء أنفسهم، بعد أن تجاوزوا النهر، قلة أمام العدو ﴿**فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ**﴾ وقال

لهم علماؤهم المؤمنون بأن النصر من عند الله وليس بكثرة العدد والعدة، وأن الله مع الصابرين على الجهاد الصادقين في ابتغاء مرضاة الله... قالوا لهم: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ وإنما كان ذلك؛ لأن هذه الفئة القليلة، هي التي ارتقت إلى رتبة الثبات في الصف، فحظيت بالاصطفاء والاختيار، بعد أن زُلزل من زُلزل. وسقط أمام الاختبار من سقط، إن هذه الفئة بعددها القليل هي المرشحة للغلبة في الحقيقة، لأنها تتصل بمصدر القوى بإخلاصها لله عز وجل، ولأنها تمثل القوة الغالبة، قوة من بيده الأمر كله، وهو القاهر فوق عباده، مخزي الظالمين، وقاهر الجبارين المستكبرين، الذين يجاهرونه بالعداوة، ويواجهون عباده المؤمنين بالطغيان والظلم والجبروت.

وما يجب الوقوف عنده: أن أولئك الأتقياء الذين يظنون أنهم ملاقو الله، كانوا على يقظة إيمانية ظهرت آثارها في تعليلهم النصر أنه بإذن الله، وأن الله مع الصابرين ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

وهكذا تكون الغلبة في معركة الحق مع الباطل لأولئك الصفوة الذين كانوا بإيمانهم أقوى من الامتحان، بل كان الامتحان صقلاً لأنفسهم وجسراً لثباتهم وصدقهم في المواطن. وبعد ذلك كله ـ ومع أخذهم بالأسباب ـ ما بُدَّ من أن يثقوا الوثوق كله، أنهم منصورون بإذن الله وأنه سبحانه مع الصابرين.

والنتيجة التي أحرزتها الفئة القليلة المؤمنة بعون الله وتأييده، نقرؤها فيما ختمت به تلك الآيات التي أتت على القصة بكامل خطوطها

العامة، وبعض جزئياتها التي لا بد من ذكرها، نقرؤها في قوله جل شأنه: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ [البقرة: ٢٥٠].

أرأيت: قيل لهم: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فكان دعاؤهم عند مبارزة العدو ـ وقد استجابوا للموعظة والتذكير ـ ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وكيف لا ينصر الله أولياءه وقد أخذوا بالأسباب كما أمر، وتوجهوا إليه بطلب التثبيت والنصر صادقين. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٥١].

وهكذا كانت النتيجة التي ترقبها المؤمنون ـ على قلة عددهم ـ وتيقنوها ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ لقد حلت الهزيمة بأولئك الأعداء على يد الفئة القليلة المؤمنة ولكن بإذن الله؛ الأمر الذي يدل على أن الله قد اختارها لتنفيذ مشيئته سبحانه بعد أن أثبتت أنها أهل للاصطفاء والاختيار، أجل: لقد هزموهم بإذن الله، لأن إرادته سبحانه هي النافذة في ملكه وسلطانه.

وشاء الله أن يقتل داود الفتى الصغيرُ، جالوتَ الملك القوي والقائد المخوف، وكان من قدر الله أن يتسلم داود الملك بعد طالوت ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ...﴾ فكان داود عليه السلام ملكاً نبياً.

وختمت الآيات ببيان الحكمة من صراع الحق مع الباطل فقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٥١].

وهكذا كلما امتد الزمن وأظلمت الوقائع في علاقة أمتنا بمن يزعمون زوراً وبهتاناً أنهم أتباع داود وشيعته؛ تبدت حاجة المسلمين أكثر وأكثر للإفادة مما قصه الله عن بني إسرائيل. فهل نحن معتبرون؟

جزاء بما كانوا يعملون

كلما ازدادت صلة المؤمن بالقرآن على الوجه المطلوب لهذه الصلة، من صفاء نية وإخلاص في التذكر والتدبر، بعد توافر الوسائل، وما يتطلبه فهم الكتاب العزيز.. ازداد هذا المؤمن إحساساً بأن عطاء القرآن ـ وهو كلام الحكيم الخبير ـ لا ينفد، وبأنه ـ حقاً ـ لا يبلى على كثرة الرد. ولا تسل عن عمق يقين هذا المؤمن الذي يتعاظم ويتعاظم بصدق قول الله تبارك وتعالى في خواتم سورة الكهف: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩] وقوله جل شأنه في سورة لقمان: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧].

أقول هذا بين يدي الإشارة إلى قبس من من عطاء الآية الثانية والخمسين بعد المائتين من سورة البقرة والتي تبدو كأنها ـ والله أعلم ـ تعقيب على ما جاء من الكلام على بني إسرائيل بدءاً من الآية الثالثة والأربعين بعد المائتين وحتى ختام الآية الحادية والخمسين بعد المائتين، حيث عرضت الآيات لقصتين تحملان وافر التجربة لهؤلاء الفئام من الناس، ودلت على مواطن العظة والاعتبار.

والآية التي أعنيها هي قول الله تبارك وتعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ [البقرة: ٢٥٢].

وحرصاً على مشاركة القارئ الكريم في المتابعة، أسمح لنفسي بأن أذكِّر بالآية الأولى، من القصة الأولى وهي قول الله جلَّ وعزَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ [البقرة: ٢٤٣] كما أذكر بالآية الأولى من القصة الثانية وهي قوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة: ٢٤٦].

وفي عود إلى مبتدأ الحديث، يبدو أنه ما بد من تلمس الحكمة ـ وحكمة الله بالغة ـ وراء التعقيب على قصتي بني إسرائيل بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾.

[البقرة: ٢٥٢]

الخطاب في الآية للنبي ﷺ، وما ينال أمته من الخير بمضمون هذا الخطاب واضح لا مرية فيه. هذه آيات الله، تلك الآيات الرفيعة المقام في ذاتها، البعيدة الغايات في هدايتها، التي قصصناها عليك من أمر الذين ذكَّرناهم بالحق، أي بالواقع الذي كان عليه الأمر المطابق لما بأيدي أهل الكتاب من الحق الذي يعلمه علماء بني إسرائيل.. وترى أن الله تعالى نسب التلاوة إلى نفسه ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ فهو سبحانه الذي يتلوها بهذا الحق، وهو الذي يملك حق تلاوتها وتنزيلها، وإنك يا محمد لمن المرسلين.

ولعل مما يكشف عن الارتباط الوثيق بين الآية الكريمة، وبين ما سبقها من تلكم الآيات التي عرضت تينك القصتين من قصص بني إسرائيل، ما تلهم التلاوة بالحق من معانٍ لعل منها: أن الله تعالى عرض من خلال كلٍ من القصتين، وما خاض بنو إسرائيل من التجربة، وإلى أي حد كانوا مع الحق أو الباطل... عرض بعضاً من خلائقهم وسمات سلوكهم المميزة، عرضا يتسم بكمال الإنصاف، لأنه من خلال الواقع، بحيث ترى كل جزئية من الجزئيات ـ فضلاً عن الكليات ـ ومعها دليلها. ولم يخل السياق من توجيه المؤمنين إلى مواطن العبرة، كي يكون لهم من تجربة من سبقهم في مضمار الزمن، رصيد يغني طريقهم وهم يشرفون بالإيمان، ويحملون عبء الرسالة الخاتمة التي كانوا بها خير أمة أخرجت للناس.

ولقد رأينا بعد القصة الأولى التي عبَّرت عن محاولة أولئك الألوف من بني إسرائيل، مواجهة القدر بقلة الأدب مع الله، فخرجوا من ديارهم، وهم ألوف حذر الموت، رأينا أنه بعد عرض القصة، جاء الخطاب الإلهي للمؤمنين، يقودهم إلى ميادين القتال في سبيله؛ إذ لا يغني حذر من قدر ولا ملجأ من الله إلا إليه فقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ [البقرة: ٢٤٤].

ولما كانت الخليقة الغالبة على بني إسرائيل، أنهم يجمعون إلى كونهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا، لذا يخافون أشد الخوف من الموت.. ولما كانوا يجمعون إلى ذلك، شدة تعلقهم بالمال والحرص على كسبه من حلِّه ومن غير حلِّه، تلا دعوة المؤمنين إلى القتال

في سبيل الله دعوتهم إلى الإنفاق في سبيل الله، لأن الأرزاق بيد الله كما أن الآجال بيد الله؛ فإذا كان الإقدام لا يقرب أجلاً، فإن الإنفاق في سبيل الله قرض لله عز وجل يضاعفه للمنفق أضعافاً كثيرة. والدعوة إلى هذا الإنفاق، حملها قول الله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: ٢٤٥].

والذي يستوقف الناظر في آي الكتاب الكريم، أن هذا الذي نتحدث عنه في شأن بني إسرائيل، مما هو بعض من عطاء تلكم الآيات في سورة البقرة بدءاً من الآية الثالثة والأربعين بعد المائتين؛ هو من القرآن المدني، لأن سورة البقرة ـ وهي أطول سور القرآن ـ سورة مدنية، ومعنى ذلك أن الآيات، كان تتنزل بالكشف عن خلائق بني إسرائيل في طابعهم السلوكي، وموقفهم من الحق الذي نزلت به رسالة السماء، والمسلمون يجاورون اليهود، ويتبادلون معهم حالات السلم والحرب كما بين رسول الله ﷺ في الوثيقة التي كتبها لضبط علاقة المسلمين بهم عندما جاء المدينة مهاجراً في سبيل الله.

أليس لذلك من مغزىً، يجب أن يكون الضياء على دروب شائكة طويلة، في علاقة أمتنا بهؤلاء الأناسي الذين امتحنت بهم البشرية وعانى منهم المسلمون منذ أطلت شمس الإسلام على جزيرة العرب؟! ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨].

من صور العدل الرباني فيهم

أسعدتنا من قريب صحبة الآية الثانية والخمسين بعد المائتين من سورة البقرة التي جاءت عقب الآيات التي عرضت لقصة أولئك القوم من بني إسرائيل، الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، ثم كان من فعل الله بهم ما كان... وقصة الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى، إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله، وكان من مراحل التجربة والنتائج بعد ذلك ما كان.

والآية التي نعنيها هي قول الله تبارك وتعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ [البقرة: ٢٥٢].

وقد وقَفَنا النظر في الآية الكريمة على بعض من قبسات الضياء تنمُّ عن مناسبة الآية لما قبلها، وعن الارتباط الوثيق بين مدلولها وبين تلكم الآيات التي عرضت للقصتين، وكشفت عما كشفت من سمات بني إسرائيل وخلائقهم في مواجهة قضايا الإيمان والحق، وما هو بسبيل ذلك من الأخلاق، ومنهج السلوك.

ونحن الآن على موعد مع قبس آخر من ضياء هذه الآية الكريمة؛ ففي قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ ما يشعر بأن العدل الإلهي موجود أبداً وراء كل كلمة من كلمات الله بشأن عباد الله، ومنهم بنو إسرائيل، الذين يظهر من خلال الحديث عنهم في القرآن الكريم، أن

الله لا يظلمهم مثقال ذرة، وأنه لا يبخسهم شيئاً لهم، موجوداً على الحقيقة، فلا محاباة، ولا ظلم، ولا تحيُّز، ولا حيف، فهو يذكرهم بما فيهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر..

ولكن هؤلاء الفئام من البشر درجوا على مقابلة الإحسان بالإساءة، وعلى الوقوف من الحق وأهله موقف العناد والأذى والافتراء، وإن أوقعهم ذلك في خيانة العهود ونقض المواثيق، بل والاعتداء على الأنبياء ممتداً ذلك إلى القتل في بعض الأحيان!!

ها هم ـ كما دل الكتاب العزيز ـ قد تفضل الله عليهم بالآيات الدالة على قدرته، وأن الآجال والأرزاق بيده، وأراهم الحجج القاطعة والدلالات الدامغة، ولكن المحور العام في سلوكهم؛ أنهم لا يقومون بشكر ما أنعم الله عليهم في دينهم ودنياهم.

وننظر في الكلمات النورانية لنرى أن الآية الأخيرة من الآيات المتعلقة بالقضية الأولى، ختمت بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ وهذا منتهى العدل الرباني إذ لم يقل هنا ـ وهو العليم بعباده ـ ولكن الناس لا يشكرون، بل أعطى الحكم على الأكثر، فجاء التعبير على هذه الصورة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ وإذن فهنالك قلة تشكر، لم يظلمها الله، بل كان من عدله المطلق، ما جاء في دلالة كلامه في شأنها، وهو الحكيم الخبير.

ونتابع الرحلة المباركة، لنرى صورة أخرى من صور العدل الرباني في الحديث عن أولئك الملأ من بني إسرائيل، وما حصل لهم مع نبيهم الذي

طلبوا منه أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله ـ كما سبق ذكر ذلك ـ نعم: نرى هذه الصورة فيما دل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة: ٢٤٦].

أرأيت؟ ﴿تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾، إنه لما كتب على المتحدَّث عنهم من بني إسرائيل القتال، خان أكثرهم العهد، ونكصوا على أعقابهم، وتولوا وهم معرضون ناكلون عن الجهاد ولم يثبت منهم إلا القليل.

والذي دلنا على أن الأكثر هم الذين وقفوا هذا الموقف المخزي، وأن القليل منهم ظلوا على العهد قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾. إنه العدل المطلق الذي لا يحابي ـ كما أسلفنا ـ ولا يحيف، ولكن هؤلاء الأناسي لا يزيدهم الإحسان إلا ضلالاً ورغبة في المكر والأذى، وخيانة العهود والمواثيق.

وماذا بعد ذلك: إنه لا يطول بنا المسير، حتى نقع على صورة ثالثة في الآيات التي نحن بصددها من العدل الرباني الذي نومئ إليه، ذلكم ما نجده في قول الله الذي لا تخفى عليه خافية: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩].

إن أولئك القلة الذين ثبتوا على العهد في إرادة القتال، لم يثبتوا جميعاً للاختبار في أمر الشرب من النهر، فمع الإنذار الشديد من

طالوت، ذلك الإنذار الذي نجده في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾.. مع هذا الإنذار، لم يَقْوَ على عدم الشرب إلا القليل، أعلمنا هذا بعد قرون وقرون كلام الله، والله جل شأنه لا يظلم مثقال ذرة.. أجل أعلمناه قوله سبحانه: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ وما من ريب في أن مقتضى العدل الإلهي، أن يعطي كل ذي حق حقه كاملاً غير منقوص. وهكذا أعطي هؤلاء القلة حقَّهم، فذكروا بوقفتهم الإيمانية في مواجهة الاختبار الشاق الذي طلب فيه الاستعلاء في تلك البرهة من الزمن على الحاجة بل والضرورة، وجاء الاستثناء الذي نرى: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ الكل شربوا إلا هذه الفئة القليلة، ونظراً لضآلة العدد الذي ظل على العهد وصبر على الامتحان وثبت له، خاف هؤلاء على أنفسهم، فقالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، فكان من تذكير العلماء العاملين إياهم ـ وما أقلهم ـ ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

هكذا تبدو هذه الوقائع التي قدمتها الآيات الكريمة، جديرة أن تزيد المؤمن ـ وهو يتلو كتاب الله ـ يقيناً على يقين بالعدل الرباني، عدل الخالق الحكيم الذي لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

ومن هنا نجد في الآيات التي نددت بخصال اليهود الذميمة ـ وما أكثرها ـ، أو ذكرت شيئاً مما عوقبوا به، أن بيان السبب في ذلك، كان مصاحباً للذم والعقوبة.

وذلك ما يجعلنا على حق اليقين، بأن ما حكم به على اليهود في كتاب الله

وبيانه من سنة النبي عليه الصلاة والسلام، هو منتهى العدل الإلهي، ناهيك عما فيه من العظة والدعوة إلى الاعتبار، ولا يظلم ربك أحداً، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

هل إلى مقارنة من سبيل؟!

كان من الخير - والرحلة مع بعضٍ من وقائع -: أن نصحب الآية الثانية والخمسين بعد المائتين من سورة البقرة وهي قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ [البقرة: ٢٥٢]. وكان مما استلهمناه من عطائها، في إطار العلاقة بما قبلها من الآيات التي تحدثت عن بني إسرائيل: أن هؤلاء الأناسي لم يظلمهم الله فيما قال عنهم، مثقال ذرة، وأن الكلمة القرآنية تنطق بما لهم وعليهم دونما حيف أو محاباة: فإن استقاموا على الطريقة - وما أقل ذلك فيهم - رأيت الثناء عليهم وذِكْرَهم بما كان من الطاعة والإحسان. وإذا شاقوا الله ورسله وكان شعارهم ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ جاء الذم والكشف عن مثالب الانحراف والدعوة إلى استئناف الطريق. وتحذير المسلمين - في الغالب - من الانزلاق فيما انزلقوا فيه.

والحق أن صور العدل الإلهي بشأنهم متعددة في القرآن الكريم، رأينا بعضاً منها فيما سبق.

وفي الطريق إلى عرض ما كان من العدل عند المخالفة، نستذكر قوله تعالى في الآية التاسعة والخمسين بعد المائة من سورة الأعراف: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف: ١٥٩] فذكر الله هذه الجماعة بما فيها، ولم يبخسها شيئاً، كما نذكّر بقوله جلَّ شأنه في الآية الرابعة والعشرين من سورة السجدة ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا

﴿لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤] فهل هنالك عدل وراء هذ العدل!!

إنها المقولة التي تؤكد ـ كما أسلفت غير مرة ـ أنه كان من العدل أيضاً ما ذُكِروا به من السوء، حين أساؤوا وظلموا وخالفوا عن أمر الله، ولم يدعوا سبيلاً من سبل المعاداة لله ولرسله ولعباده الصالحين، إلا سلكوه.

وليس قليلاً، ما نرى من النماذج التي يبدو فيها الأمران من الثناء والذم متجاورين، وكل منهما مرتبط بسببه أوثق ارتباط. ففي سورة الأعراف نفسها وبعد قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ نقرأ قوله جل شأنه في الآية الستين بعد المائة ـ والكلام على بني إسرائيل ـ ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأعراف: ١٦٠] لقد أنعم الله عليهم بهذه النعم كلها، ورزقهم من الطيبات ولكنهم ظلموا بالمخالفة والعصيان، فكان ذلك ظلماً لأنفسهم يورثهم المساءة في الدنيا ويوم الدين ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. لقد خالفوا وكفروا، فكان هذا الظلم الشديد لأنفسهم، مع ما شاهدوه من الآيات البينات والمعجزات القاطعات وخوارق العادات. أجل حصل منهم ذلك، وكان المفترض أن يشكروا تلك النعم، وأن يقطع شكُّهم بما رأوا بأم أعينهم من

تلك الدلائل الباهرات التي تولد اليقين عند المنصفين، ولكنهم بدل ذلك، ازدادوا تعنتا وإصراراً على المخالفة والجحود.

ومن هنا تبين ـ كما يقول الحافظ ابن كثير ـ فضيلة أصحاب محمد ﷺ رضي الله عنهم على جميع أصحاب الأنبياء في صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم، مع ما كانوا معه في أسفاره وغزواته، ومنها عام تبوك في ذلك القيظ والحر الشديد والجهد، لم يسألوا خرْق عادة ولا إيجاد أمر، مع أن ذلك كان سهلاً على النبي ﷺ. ولكن لما أجهدهم الجوع سألوه تكثير طعامهم، فجمعوا ما معهم، فجاء قدرَ مبرك الشاة، فدعا الله فيه، وأمرهم فملؤوا كل وعاء معهم. وكذلك لما احتاجوا إلى الماء، سأل الله تعالى فجاءتهم سحابة فأمطرتهم فشربوا وسقوا الإبل وملؤوا أسقيتهم. ثم نظروا فإذا هي لم تجاوز العسكر، قال ابن كثير – رحمه الله – فهذا هو الأكمل في الاتباع؛ المشي مع قدر الله، مع متابعة الرسول ﷺ.

وهذا الذي نشير إليه بشأن الطعام والماء، جاءت به النصوص الصحيحة والحمد لله. فقد روى الإمام أحمد بسنده عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال: (لما كان يوم غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة، فقالوا: يا رسول الله لو أذنت لنا فننحر نواضحنا فأكلنا وادَّهنا؟ فقال رسول الله ﷺ: افعلوا، فجاء عمر فقال: يا رسول الله إن فعلت قلَّ الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم وادع لهم فيها بالبركة لعل الله أن يجعل فيها البركة، فقال رسول الله ﷺ: «نعم. فدعا بنطع منبسطة ثم دعا بفضل أزوادهم، فجعل الرجل يأتي بكسرة؛ حتى اجتمع على النطع

من ذلك شيء يسير، فدعا رسول الله بالبركة ثم قال لهم: خذوا في أوعيتكم، فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في المعسكر وعاء إلا ملؤوها، وأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضْلةٌ فقال رسول الله ﷺ: أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى اللَّهَ بها عبدٌ غير شاكٍّ فيحجب عن الجنة». ورواه مسلم عن أبي كريب عن الأعمش، ورواه أحمد من حديث سهيل عن أبيه عن أبي هريرة ولم يذكر غزوة تبوك بل قال: في غزوة غزاها.

وأخرج عبد الله بن وهب عن ابن عباس أنه قيل لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: حدثنا عن شأن ساعة العسرة، فقال عمر: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلاً، وأصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان أحدنا ليذهب فيلتمس الرجل، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ثم يجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع الله لنا فقال: «أو تحب ذلك قال: نعم، قال: فرفع يديه نحو السماء فلم يرجعها حتى قالت السماء فأطلت ثم سكبت فملؤوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر».

أين هذا الذي فعله أصحاب النبي ﷺ وهم في ساعة العسرة، يلفهم هذا الجهد الجاهد، والمشقة المضنية، والعسر الذي لا يكاد يدانيه عسر، حيث أخذوا بالأسباب وسألوا الرسول عليه الصلاة والسلام الدعاء، دون تعنت أو ضجر أو طلب معجزة مادية...؟

أين هذا مما صنعه بنو إسرائيل من تعنت، وسخط، ونكران للنعمة، وتمحل في طلب المعجزة، وإصرار على الجحود بعد ظهورها؟.

صلى الله على الرحمة المهداة، سيدنا محمد بن عبد الله، ورضي الله عن أصحابه الكرام، الذين آمنوا به صادقين. واتبعوا النور الذي أنزل معه مجاهدين مخلصين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

التطلع إلى عبادة الأوثان

- ١ -

الرسالة التي أنيط بأمة الإسلام أداؤها في العالمين، هداية إلى الخير، وسيراً بالإنسان إلى ما فيه سعادته في الدنيا والآخرة.. هذه الرسالة، وتنوُّع الميادين التي يفترض أن تخوضها من أجل ذلك على صعيد الأمكنة والأزمنة والشعوب، وما يمكن أن يحفل به الطريق من عقبات يصنعها أهل الجهالة والضلالة.. كل أولئك، كان من شأنه ـ والله أعلم ـ أن تكوَّن أجيال هذه الأمة، بدءاً من الجيل الأول، على التبصُّر بالحقائق التي تجعلها على بصيرة من أمرها فيما يُطلب إليها عملهُ، كيما يكون العمل مسبوقاً بما يمهد لانتظامه، وربط الأسباب فيه بالمسبَّبات، والمقدمات بالنتائج.. وذلك من طريق المعرفة والاقتناع بما هو حق وما هو باطل، والإحاطة بما تنبغي الإحاطة به من مسالك الأمم والشعوب، وبخاصة ما كان من شأن بني إسرائيل، الذين امتحنت بهم البشرية وما تزال تمتحن.

وشاء الله ـ وهو الحكيم الخبير ـ أن يكون التعريف بهؤلاء الناس، وذكر قصصهم مع أنبيائهم ومع غيرهم من الناس، وبيان مواقفهم من الحق الذي جاءت به الرسل، والسمات التي تميز بها سلوكهم.. شاء الله جلت حكمته أن يكون ذلك مصاحباً للخطوات الأولى على طريق الدعوة؛ فقد شغل اليهود وبنو إسرائيل حيزاً كبيراً في القرآن الكريم ـ بدءاً من العهد

المكي ـ كما أسلفنا من قبل ـ مع أن المسلمين لم يكونوا على مجاورة لهم أو معايشة في هذا العهد، ولكن كان ذلك في العهد المدني.. وأنت ترى أنه ورد ذكرهم بإسهاب أو اقتضاب، تصريحاً أو تلميحاً، مع ربط ما كان يحصل لهم بأسبابه التي كسبتها أيديهم في خمسين سورة من كتاب الله عز وجل، والناظر في كتب السنة والسيرة المطهرة يجد فيضاً من الحديث عنهم أيضاً، ومن ذكر الوقائع والتحليل للسمات التي كانت توجه سلوكهم، وتقفهم حيث وقفوا من الدعوة ومن صاحبها عليه الصلاة والسلام والمسلمين.

وهكذا كان من حكمة الله، تكوين المسلمين من أول الطريق، على المعرفة بما لا بد من معرفته بهذا الصنف من البشر. ففي العهد المكي، حيث المسلمون فئة قليلة مستضعفة تعاني من العقبات الصوارم، ومحاولة الفتن عن الدين، والمتاعب التي تكاد لا تنتهي.. في هذا العهد، نجد القرآن الكريم يتنزل بالحديث عن اليهود وبني إسرائيل، ويعرض بمنتهى الدقة والموضوعية، لقصصهم قبل البعثة المحمدية، من لدن وجودهم في مصر، وبعثة موسى عليه السلام وبعدها، كما يشير بالتصريح حيناً وبالتلميح حيناً آخر إلى مواقفهم من دين الله، ورسله عليهم الصلاة والسلام، وموقف بعضهم من الدعوة الإسلامية في العهد الذي نذكّر به، وهو العهد المكي وما كان من جنوحهم عن الحق الذي نزل به القرآن، وتأييدهم للوثنية والوثنيين..

هذا بالإضافة إلى الآيات التي تحمل إشارات مطلقة، يدخلون في نطاقها عند ذكر أهل الكتاب عموماً ومواقفهم من هذه الدعوة.

ها إنك تقرأ في سورة الأعراف ـ وهي سورة مكية ـ بدءاً من الآية الثامنة والثلاثين بعد المائة قول الله جل ذكره: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨ - ١٤١].

لقد كان بنو إسرائيل يسامون الخسف في ظل الوثنية الجاهلية الرعناء عند فرعون وملئه، فيقتَّل أبناؤهم، وتُستحيَىٰ نساؤهم، فانقذهم الله على يدي نبيهم وزعيمهم موسى عليه السلام، وكان ذلك الإنقاذ باسم الله الواحد رب العالمين، الذي لا رب غيره ولا معبود بحق سواه، وشق لهم البحر، وأخرجهم من ذلك البلاء العظيم الذي كانوا يسامون. وكان المفروض أن يكون لهم في ذلك درس يزيدهم إيماناً بعقيدة التوحيد، ويعمق في نفوسهم أن لا إله إلا الله، وأن عبادة غيره كفر وضلال مبين، ولكن ثبت أنهم كانوا على عكس ذلك، فما كادوا يقعون على مشهد من مشاهد الوثنية، حتى هفت نفوسهم إلى تلك الوثنية وعبادة غير الله. حصل ذلك منهم، كأن شيئاً مما يدعو إلى غيره لم يحدث لهم من قبل.

ها هي ذي كلمات القرآن تكشف عن صنيعهم هذا بأجلى صورة وأوضح بيان، ذلكم قول الله تعالى في الآية التي أثبتناها من قريب وهي الآية الثامنة والثلاثون بعد المائة من سورة الأعراف ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ

﴿الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

فحين أنقذهم الله، وتجاوزوا البحر بعد أن رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه وقدرته التي لا تُحَدُّ ما رأوا؛ وقعت أبصارهم على قوم وثنيين عاكفين على أصنام لهم يعبدونها ويقدسونها، قيل: كانوا مع الكنعانيين وقيل: كانوا من لخم. بدل أن يستنكروا هذا الذي رأوا ـ على الأقل ـ طلبوا من رسول رب العالمين موسى عليه السلام الذي أخرجهم ـ باسم الإسلام لله وتوحيده ـ من الأرض التي أصابهم فيها ما أصابهم من البلاء والأذى.. طلبوا من موسى أن يتخذ لهم وثناً يعبدونه من جديد ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾.

ولم يكن عجباً من العجب، أن يغضب موسى لله، ويغار على ألوهيته أن يُشرك بها قومه بعد تلك الحقبة الطويلة من الصراع بين التوحيد والوثنية.. لم يكن عجباً أن يغضب موسى فيقول لهم: إنكم قوم تجهلون.

ونتابع في الصفحات القادمة ـ إن شاء الله ـ، دلالة هذا الموقف من بني إسرائيل، وبيان القرآن الكريم في شأنه. وكم في مثل هذه المواقف من هؤلاء عَبْر التاريخ من دروس وعِبَر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

التطلع إلى عبادة الأوثان

- ٢ -

في إشارة إلى أن الكلام على بني إسرائيل واليهود، شغل في كتاب الله مكيه ومدنيه حيزاً متسعاً، ألمحت إلى أن حديث القرآن عن بني إسرائيل في العهد المكي ـ والمسلمون ما يزالون قلة مستضعفة مستهدفة للفتنة والأذى ـ ذو دلالة عميقة، تقف الأمة الإسلامية على ما يُعيرُه القرآن من أهمية بالغة لتكوين المسلمين، ـ بدءاً من أول الطريق ـ على المعرفة التي يكون لهم معها حضور في التاريخ، ويستجلون من خلالها سمات الأمم والشعوب، وحكمة الله في مصائرهم عطاءً أو منعاً نصراً أو خذلاناً.. وبخاصة ما كان من أمر بني إسرائيل، والتجارب التي مروا بها. وما أثمرت تقلباتهم الضالة على صعيد الفرد والمجتمع، وما أعقبت من نتائج عبر التاريخ.. وما تزال.

وكان أول ما أردنا الوقوف عنده مما نزل من القرآن المكي في شأنهم: آيات من سورة الأعراف ـ وهي سورة مكية ـ بدءاً من الآية الثامنة والثلاثين بعد المائة. والآيات التي نعني، هي قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ

﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾.

[الأعراف: ١٣٨ - ١٤١]

وقد وقفتنا الآية الأولى على الموقف المخزي الذي وقفه هؤلاء النفر من بني إسرائيل، حين لم ينتفعوا بذلك التاريخ الذي قارب ربع قرن من الزمان، من الصراع بين وثنية فرعون ودعواه الألوهية، وبين كلمة التوحيد التي جاءهم بها من عند الله نبيهم موسىٰ عليه السلام، لم ينتفعوا بذلك ولا بما رأوا من الآيات الباهرات، قاطعة الدلالة على أن التوحيد هو الحق، وأن ما دونه هو الباطل، والتي كان منها إنقاذهم من ظلم فرعون وعسفه باسم الله الواحد رب العالمين، وإنزال العقوبة الإلهية الصارمة بأعدائهم.. أجل لم ينتفعوا بشيء من ذلك، وراحوا يستشرفون عبادة الأوثان؛ فحينما جاوزوا البحر، وقعت أبصارهم على قوم يعكفون على أصنام لهم يعبدونها ويقدسونها، فتحركت في نفوسهم نوازع الانحراف والعماية، فلم يستحيوا أن يطلبوا من موسىٰ عليه السلام، أن يجعل لهم، كما لهؤلاء الوثنيين آلهة، وأدرك موسى ما يعنيه ذلك من الجهالة والران على القلوب، فقال لهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

أرأيت إلى رواسب الانحراف العريق في نفوسهم، إن كل ما وقع لهم من البلاء، يُنزله بهم من يدعي الألوهية، فيقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، وهو فرعون ـ ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ ـ يعينه على ذلك مَلَؤه وأشياعه الضالون. وما وقع من الإنقاذ باسم التوحيد، والتبرؤ من

الأنداد والأضداد بعد ذلك.. وما ظهر خلال هذا كله من الآيات والعظات.. كل أولئك لم يحل دون بني إسرائيل، ودون أن يتطلعوا إلى وثن يتخذونه إلهاً يعبدونه.. وإنه لأمر في غاية السوء، أن يقع منهم ذلك.. ولكن الأسوأ منه، والذي هو غاية الشناعة والانحراف: أن يطلبوا ما طلبوه من موسى عليه السلام.. موسى الذي أنقذهم ـ بعون الله وتأييده ـ من الوثنية التي شاءها فرعون حين أراد إجبارهم على اتخاذه إلهاً وعبادته واستذلهم بتلك الوثنية، حتى إن الملأ من قومه ليهيجونه على موسى ومن معه بقولهم: ﴿**أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ**﴾ [الأعراف: ١٢٧] ثم ماذا وراء هذا المطلب الموغل في الضلال المبين؟

إنهم لم يتخذوا بأنفسهم وثناً يعبدونه، ولكنهم تجاوزوا الحدود، إلى أن يطلبوا ذلك من نبيهم الذي يوحى إليه بأن لا إله إلا الله.

ولكن لا بدع، فهم بنو إسرائيل؛ وكأن الله تعالى أراد بحكمته البالغة أن يضع هذه الحقيقة عن اليهود أمام المسلمين بصورة مبكرة من عمر الدعوة، في رحلتهم الطويلة عبر تاريخ الإنسان، كيما يكونوا على المحجة البيضاء، وهم يخوضون معركة البقاء بين الوثنية والتوحيد.

وفي هذه الواقعة، إشارة إلى أنه إذا فسدت الطوية، وأظلمت القلوب وتبلد الحسُّ؛ استوى طول التجربة وقصرها؛ فهؤلاء الأناسي ما كادوا يخرجون من البحر، ويبصرون أولئك العاكفين على أصنامهم يعبدونها، حتى تحركت في أعماقهم نوازع الجهالة الجهلاء، وطلبوا ما طلبوا من موسى عليه

السلام، ناسين ـ لا أذكرهم الله ـ ما تعلموا خلال عشرين عاماً أو تزيد، منذ جاءهم موسى عليه السلام بالتوحيد، فقد ذكرت بعض الروايات أنه أمضى في مصر ثلاثة وعشرين عاماً، منذ أن واجه فرعون وأشياعه برسالته، إلى يوم الخروج من مصر، مجتازاً ببني إسرائيل البحر، بل نسوا ـ لا أذكرهم الله ـ معجزة اللحظة التي أنقذتهم من فرعون وملئه وأهلكت هؤلاء أجمعين، كما أخبر عن ذلك القرآن الكريم.

وتضعنا الكلمة القرآنية أمام الموقف الذي كان من موسى عليه السلام. لقد غضب من مقالة السوء التي نطقت بها ألسنتهم، غضب لربه جل وعلا، وغار على ألوهيته أن يشرك بها قومه، فكان أن قال لهم تلكم الكلمة المعبرة التي تليق بطلبهم العجيب قال: ﴿**إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**﴾ ولم يحدد ماذا يجهلون. ذلك ليكون في اللفظ ـ والله أعلم ـ إطلاق يكون معه أكثر شمولاً. إنهم يجهلون: من الجهالة ضد المعرفة والعلم، وإنهم يجهلون: يقعون في الحماقة التي هي ضد العقل، فما كان لمقالة السوء التي قالوها أن تنبعث إلا من الغارقين في الجهالة والحمق إلى أبعد الحدود، ذلك لأن الانحراف عن طريق التوحيد إلى الشرك وليدُ الجهل والحماقة.

أما العلم والتعقل: فكلاهما يعود ـ إذا صدقت الوجهة ـ إلى الله الواحد الذي لا إله غيره ولا رب سواه، فما من علم ولا عقل بالمعنى الصحيح ـ بعيداً عن سلطان الهوى ـ يقود إلى غير هذا الطريق؛ لأن كل مسلك يجافي طريق التوحيد، لا يعدو أن يكون إعلاناً عن انحراف

صاحبه، مجافياً للفطرة، مخالفاً ما يقتضيه العقل السليم القائم بوظيفة التنوُّر والتفكر بآلاء الله في النفس وفي الكون ﴿ **قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ** ﴾.

والحمد لله الذي أتم علينا النعمة بالإسلام، ونسأله جل شأنه الثبات على الحق الذي نزل به الكتاب. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الخير في التوحيد الخالص

كان فيما حملت إلينا سورة الأعراف ـ وهي سورة مكية ـ من هداية في الكشف عن بعض من خصائص اليهود النفسية، وسمات الانحراف الأصلية فيهم، تلك الآية الكريمة التي تحكي تطلعهم إلى اتخاذ إله مع الله، يعكفون عليه ويقدسونه رغم ما رأوا من الآيات الدالة على قدرة الله وعظيم سلطانه، ورغم كونهم أُنقذوا من ظلم فرعون وشيعته باسم توحيد الله تعالى وإفراده بالعبودية وتنزيهه عن الشريك والمثيل. وقد أشرت من قبل إلى عمق الدلالة في قول الله تعالى على لسان موسى عليه السلام خطاباً للقوم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ عندما طلبوا هذا المطلب المخزي ـ وكلُ ما هم فيه مع عدوهم، وما غمرهم من الآيات والعظات ـ؛ يوجب مزيد اليقين بوحدانية الله، وأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير !!.

لقد كشف تطلعهم إلى اتخاذ إله مع الله، أنهم ما يزالون بعد تلك الأعوام الطويلة غارقين في الجهل والعماية، لم تستنر قلوبهم بكلمة التوحيد على الوجه الذي ينبغي، ولا حركت عقولهم وقائع ما جرى من صراع بين الكلمة الطيبة لا إله إلا الله، وبين الشرك، في معركة قادها نبيهم وزعيمهم موسى عليه السلام، في مواجهة مدعي الألوهية فرعون.. أجل إنهم قوم يجهلون.

والواقع أن موسى عليه السلام لم يكتف بقوله: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ولكنه حاول أن يزيل الغشاوة عن العيون، ويبين لبني إسرائيل أن هؤلاء

الذي يعكفون على أصنام لهم، والذين تطلعتم إلى تقليدهم فطلبتم أن أجعل لكم إلهاً كما لهم آلهة... هؤلاء قوم ينتظرهم سوء العاقبة وبئس المصير، ذلكم قوله تعالى في أعقاب الآية السابقة: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إن ما هم فيه من شرك وعكوف على أصنام يتخذونها آلهة من دون الله الواحد سبحانه، وحياةٍ تقوم على هذا الانحراف عن الفطرة، والمجافاة للعقل السليم.. إن هذا كله متبر هالك باطل، اعتقاداً كان، أو عملاً وسلوكاً؛ فكيف تستشرفون ـ وقد أنعم الله عليكم بالتوحيد ـ تقليد قوم يسرحون ويمرحون في الضلالة، وما هم فيه هالك باطل لا يعقب إلا السوء والعذاب المهين في الآخرة، ولا ينتهي إلا إلى ما ينتهي إليه الباطل من هلاك ودمار؟!.

وهذ الذي حكاه القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام رَدّاً على ما كان من بني إسرائيل ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يحمل في طياته ـ وهو من القرآن المكي أي في فترة مبكرة من عمر الدعوة ـ تحذيراً لهذه الأمة أن تقع فيما وقع فيه أولئك الجهلة الوالغون في العماية وسوء التفكير. من أجل ذلك كان رسول الله ﷺ حريصاً كل الحرص على أن يحول دون المسلمين ودون أي تصرف يشبه من قريب أو من بعيد ما حصل من بني إسرائيل، أو يمكن أن يوصل إليه، أخرج ابن جرير الطبري في تفسيره للآية عن أبي واقد الليثي – رضي الله عنه –، أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين، قال: وكان للكفار سِدرة يعكفون عندها، ويعلقون بها أسلحتهم، يقال لها: (ذات أنواط) قال: فمررنا بسدرة خضراء عظيمة،

قال: فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط، قال: قلتم والذي نفسي بيده، ما قال قوم موسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩] إنها السَّنَن «لتركبن سنن من كان قبلكم». وفي بعض الروايات ما يدل على أن أبا واقد - رضي الله عنه -، هو الذي طلب ذلك من رسول الله ﷺ، فقد روى الإمام أحمد عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين، فمررنا بسدرة فقلت: يا نبي الله اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، إنكم تركبون سنن من كان قبلكم».

وأنت واجد هنا أن النبي ﷺ استعظم ما طلب منه، وأراد حسم الموقف من أول الطريق، سداً للذريعة ولكيلا يسلك المسلمون سبيلاً تصل بهم إلى الهوة التي وقع فيها بنو إسرائيل. إذ قال صلوات الله وسلامه عليه: «الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة إنكم تركبون سنن من كان قبلكم» والسَّنَنُ بفتحتين: نهج الطريق.

ولعل من الخير أن أشير إلى أن الذين قالوا ما قالوا لرسول الله ﷺ، كانوا حديثي عهد بكفر، فكأنهم ما كانوا يتصورون أن في الأمر ما ينافي التوحيد، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام - كما أسلفت - خاف أن يكون ذلك عنوان انحراف عن الصراط السوي، ونبَّه بحزم إلى عدم الوقوع في تقليد جهالة بني إسرائيل، حين قالوا لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة. فقد

روى أبو داود الطيالسي في سنده عن أبي واقد اللَّيثي قال: كنا مع رسول الله ﷺ بحنين ـ ونحن حديثو عهد بكفر ـ فمررنا على شجرة يضع المشركون عليها أسلحتهم يقال لها: ذات أنواط، فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال: الله أكبر قلتم كما قال أهل الكتاب لموسى عليه السلام: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة. ثم قال رسول الله ﷺ «إنكم ستركبون سنن من كان قبلكم» ورواية ابن إسحاق في السيرة تؤكد ما قلناه لأنها نصّت أيضاً على قول أبي واقد: (ونحن حديثو عهد بكفر).

وهكذا نرى أن أمتنا مدعوة أبداً إلى أن يكون لها وجودها الذاتي النابع من عقيدة التوحيد، فلا يصيبها ما أصاب أولئك الذين تطلعوا ـ وهم يدَّعون التوحيد ـ إلى اتخاذ إله يعبدونه من دون الله، فقال لهم موسى: إنكم قوم تجهلون. فالخير كل الخير في التوحيد الخالص، وإقامة الحياة الإسلامية على أساس منه، وشتان شتان بين الظلمات والنور. والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

مقابلة النعم بالجحود

- ١ -

مرة أخرى نعود إلى متابعة العطاء في تلكم الآيات المكية من سورة الأعراف، حيث الكلام على بني إسرائيل في قالة السوء التي قالوها لموسى، بعد أن خرجوا من البحر، وما كان من جواب موسى عليه السلام من قوله كما أخبر القرآن الكريم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وكانت لنا في صفحة سابقة وقفة عند بعض من عطاء تلكم الكلمات المباركات. غير أن القرآن الكريم كشف لنا عن أن موسى عليه السلام لم يقتصر على هذا الذي رأينا، ولكنه قال شيئاً آخر، ألا ترى إلى ما جاء في أعقاب الآيتين المومى إليهما من قول الله تعالى إخباراً عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٠].

لقد فضلهم الله على العالمين في زمانهم، بأن اختارهم لحمل رسالة التوحيد، وذلك فضل عظيم من الله لا يدانيه فضل، ومنة كبرىٰ لا تعدلها منة... وبدلاً من الشكر على ما منَّ الله به عليهم وتفضَّل، يطلبون إلى نبيهم الذي تقوم رسالته على التوحيد، أن يجعل لهم إلهاً غير الله، وهم مغمورون بنعمته وفضله، ولا تعوزُ حياتَهم آيةٌ من الآيات التي تدل أوضح دلالة، وأبلغها على أنه لا إله إلا الله الواحد الأحد الفرد الصمد، وأنه لا معبود بحق إلا هو سبحانه.

وجميل ما ذهب إليه شيخ المفسرين ابن جرير الطبري، من أن ذلك كان منهم جهلاً أيَّ جهل، فكان قول موسى عليه السلام: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ فيه شي من الإجمال، فجاءت الآية بما يدل على أن صنيعهم جهل وجهالة قال – رحمه الله – في تفسير هذه الآية: (يقول تعالى ذكره: قال موسى لقومه: أسوى الله ألتمسُكم إلهاً وأجعل لكم معبوداً تعبدونه، والله الذي هو خالقكم فضَّلكم على عالمَي دهركم وزمانكم؟ يقول: أفأبغيكم معبوداً لا ينفعكم ولا يضركم تعبدونه، وتتركون عبادة من فضلكم على الخلق؟ إن هذا منكم لجهل).

وتنتقل بنا الآيات إلى قول الله جل وعز: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ [الأعراف: ١٤١] وقد جاءت هذه النقلة فكان الخطاب من الله لهم بقوله ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم﴾ على طريقة القرآن الكريم ـ كما يقول صاحب الظلال رحمه الله ـ في وصل ما يحكيه عن أولياء الله، بما يحكيه عن الله سبحانه، إذ يستطرد السياق ـ كما نرى ـ بخطاب من الله تعالى موصولٍ بكلام موسى عليه السلام موجه كذلك لقومه. ولا يخفى ما في مثل هذا الوصل في كتاب الله الكريم بين كلام الله جل شأنه وما يحكيه من كلام أوليائه، من التكريم والإشعار بما لهم من منزلة عنده سبحانه.

وهكذا نقرأ قول الله تعالى إخباراً عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف: ١٤٠] ونقرأ عقب ذلك في الآية التي تلي قوله جل وعلا خطاباً لبني إسرائيل أيضاً: ﴿وَإِذْ

﴿أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾.

يقول الله تعالى لهم: واذكروا مع هذا الذي قلتموه لموسى بعد رؤيتكم من الآيات والعبر ما رأيتم، وبعد النعم التي سلفت مني إليكم، والأيادي التي تقدمت فعلكم ما فعلتم، من هذا القول المخزي عن التوحيد إلى طلب أن يكون لكم إله تعبدونه من دون الله.. اذكروا نعمتي عليكم إذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، أي خلصتكم منهم وأنقذتكم من أيديهم صحبة موسى عليه السلام، وقد كانوا يسومونكم أي يوردونكم ويذيقونكم سوء العذاب، أقبح العذاب وأسوأه.

وآل فرعون هم الذين كانوا على منهاجه وطريقته في الكفر بالله من قومه، وإنما يعملون ما يعملون بإرادته وموافقته، بل بأمره. وقد نسب التقتيل والاستحياء إليهم، لأنهم كانوا يباشرونه بأنفسهم.

هكذا كان أمر فرعون، بأن يقتل كل ذكر يولد من بني إسرائيل، وأن تترك البنات، وذلك بعد رؤيا رآها ـ كما يقول المفسرون ـ فيها إنذار بزوال ملكه على يد بني إسرائيل. وأمر باستعمالهم في مشاق الأعمال وأرذلها.

وبعد هذا التذكير بما أنعم الله عليهم من النجاة من آل فرعون، حيث كانوا يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ البلاء هنا هو النعمة، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وروي عن السدي في قوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أما البلاء: فالنعمة، ومثل ما روي عن مجاهد قال: نعمة

عظيمة. من أجل ذلك قال الطبري – رحمه الله –: أما قوله ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ فهو يعني: وفي الذي فعلنا بكم من إنجائكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون إياكم، على ما وصفت، بلاء لكم عظيم أي نعمة عظيمة عليكم في ذلك.

وإنما فسر البلاء في الآية التي نحن بصددها، وفي أمثالها من الآيات هذا التفسير؛ لأن أصل البلاء في كلام العرب الاختبار والامتحان، ثم يستعمل في الخير والشر، لأن الامتحان والاختبار قد يكون بالخير كما يكون بالشر. كما جاء في سورة الأعراف ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف: ١٦٨] وفي سورة الأنبياء نقرأ قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] والأكثر في الشر أن يقال: بلوته أبلوه بلاءً. وفي الخير: أبليته أُبليه إبلاءً وبلاءً. قال زهير بن أبي سلمى:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

فجمع بين اللغتين، لأنه أراد فأنعم الله عليهما خير النعم التي يختبر بها عباده.

هذا: ويفترض للنعمة أن تذكر فتشكر، ولكن اليهود دائماً يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير. ثبتنا الله بقوله الثابت، وعافى أمتنا من الوقوع في تقليد هؤلاء المغضوب عليهم، ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

[آل عمران: ١٤٧]

مقابلة النعم بالجحود

- ٢ -

كفران النعمة والتطلُّع إلى اتخاذ إله من دون الله عز وجل، مع توافر الدواعي الواضحة للشكر والثبات على الإيمان: ظاهرة من ظواهر السلوك عند اليهود كما عرفنا: ظاهرة دل عليها كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين ولا من خلفه، وأكدتها الوقائع. وقد رأينا نموذجاً لذلك فيما قصَّ علينا القرآن المكي في سورة الأعراف عن بني إسرائيل يوم بدَّلوا نعمة الله كفراً، ولم يبالوا أن يطلبوا من نبيهم موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهاً يعبدونه من دون الله، معْرِضين عما يجب عليهم من شكر الله على نعمة تفضيلهم على أهل زمانهم بالتوحيد، وإنجائهم من آل فرعون الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب، وإهلاك عدوهم.

وفي متابعة لاستلهام الكلمة القرآنية الهادية في شأن هذه الظاهرة التي تنمُّ عما يتسم به سلوكهم من الإتيان بالنقيض، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير.. أود الإشارة إلى أن ما أنعم الله به على بني إسرائيل من إنقاذهم على يد موسى عليه السلام من فرعون وآله وشيعته، حيث كانوا ينزلون بهم الأهوال قد ورد ذكره في القرآن الكريم مكيِّه ومدنيِّه غير مرة.

ولعل الحكمة في ذلك ـ والله أعلم ـ أن يعي المسلمون ومن ورائهم من يعقل من الناس؛ حقيقة هؤلاء القوم الذين نراهم ـ على دعاواهم

العريضة في الصلة بالسماء ـ يقابلون نعم الله بالجحود والكفران، وبدل أن يزدادوا بما يرون من الآيات البينات، إيماناً بوحدانية الله تعالى وقدرته وسلطانه، وأن العبادة لا تجوز إلا له سبحانه.. بدل ذلك، ينكصون على أعقابهم، ويستشرفون التمرغ في أوحال الوثنية، واتخاذ الند والمثيل لله في الطاعة والإذعان.. ولعل من الحكم ـ فيما وراء ذلك ـ أن يكون المسلمون ـ وهم حملة الرسالة الخاتمة ـ على أكمل وجه من وضوح الرؤية في تجنب كل ما يمكن أن يوقع فيما وقع فيه أولئك المبطلون الجاحدون.

هذا: وتعدد المواطن التي ورد فيها التذكير بالإنجاء من فرعون وآله وشيعته، توبيخاً وتأنيباً لمن يتمرغون في إثم الكفران والجحود من بني إسرائيل، صحبه ـ في الكتاب المعجز ـ تنوع الصور في الأسلوب، وفق ما يقتضيه منهج الهداية الرباني؛ فالذي رأيناه في سورة الأعراف المكية: خطابٌ من الله تعالى لبني إسرائيل أن يذكروا إذ أنجاهم بقدرته ـ سبحانه ـ على يد موسى ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ وننتقل إلى سورة إبراهيم ـ وهي سورة مكية أيضاً ـ لنرى أن التذكير بالنعم وقع أيضاً من موسى عليه السلام لقومه، ذلكم قول الله جل شأنه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [إبراهيم: ٦] فهنا نجده تعالى يخبر عن موسى عليه السلام، أنه ذكَّر بني إسرائيل بأيام الله عندهم ونعمه عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون وما كانوا يسومونهم من العذاب والإذلال، حيث كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم،

ويتركون إناثهم، فأنقذهم الله تحت عنوان التوحيد الخالص لله من ذلك. وهذه نعمة عظيمة هي فضل من الله وعظيم نعمته. ولهذا قال: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي وفي ذلكم نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك ـ كما أشرت في وقفة سبقت ـ وهي نعمة من واجبكم أن تقابلوها بالإذعان والشكران.

ومن الممكن أن يكون المقصود بالبلاء ـ كما يرى بعض المفسرين ـ ما كان يفعله قوم فرعون، فيكون التأويل:

(وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل بلاء أي اختبار عظيم).

على أية حال: يحتمل أن يكون المراد ـ كما يرى الحافظ ابن كثير رحمه الله ـ هذا وهذا، كقوله تعالى في سورة الأعراف ـ والكلام على بني إسرائيل ـ ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾.

ولا يقف الأمر عند القرآن المكي. ذلكم ما نقرأ في سورة البقرة المدنية من التذكير بالإنجاء من آل فرعون مع التذكير بنعمة إغراقهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [البقرة: ٤٩، ٥٠].

ونمضي مع سورة إبراهيم لنقرأ بعد الآية التي أوردناها قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]

جاءت هذه الآية الكريمة بعد التذكير ـ كما رأينا ـ بنعمة إنجاء الله إياهم من ظالميهم: فرعون وقومه.

هكذا: وإذ تأذن ربكم: آذنكم وأعلمكم ربكم بوعده لكم. أو: آلى ربكم وأقسم بعزته وجلاله وكبريائه كما في قوله تعالى في سورة الأعراف متوعداً اليهود بسبب ظلمهم وانحرافهم: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

ومضمون ما أعلم الله به أو أقسم عليه في سورة إبراهيم، والآية التي نحن بصددها ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ ـ والله أعلم ـ لئن شكرتم نعمتي لأزيدنكم منها وأبارك لكم فيها، ولئن كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها باستخدامكم إياها في المجاهرة بعدائي ـ وأنا المنعم المتفضل ـ والانحراف عن الصراط السوي، إن عذابي لشديد؛ وذلك بالعقاب على هذا الكفران في الدنيا والآخرة.

ثم أعلن موسى في قومه أن الله غني عن شكرهم، محمود على صنيعه فيهم ـ وإن كفر من كفر ـ فإذا شكروا، فالخير لهم ولا حاجة لله فيه، وإذا كفروا، فالشر عائد عليهم لا محالة، نجد ذلك في قوله تبارك وتعالى بعد الآية السابقة: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [إبراهيم: ٨].

موسى عليه السلام ـ وهو النبي الموحى إليه ـ يقرر هذه الحقيقة في خطاب لليهود، الذين لم يشكروا نعمة الله عليهم بإنقاذهم من آل

فرعون، بل راحوا يتبعون أهواءهم، ويطلبون إلهاً يعبدونه من دون الله. هذه الحقيقة هي: أن الله غني عن عباده، وهو الحميد المحمود على كل حال، شكر من شكر، وكفر من كفر. فلو أن من في الأرض جميعاً كفروا النعمة كما كفر اليهود، فإن ذلك لا يغير من تلك الحقيقة شيئاً، ولذلك جاء التأكيد باللام بعد التأكيد بـ(إن) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

الحمد لله الذي هدانا للمعرفة الحقة، ونسأله تعالى أن يفتح القلوب لما جاء في الكتاب والسنة عن المغضوب عليهم اليهود، كيما يوظف ذلك في معركة متنوعة الميادين الظاهرة والباطنة هنا وهناك، وهي ميادين قد يطول أمدها.. ويطول، ولله الأمر من قبل ومن بعد..

لا يـذكـرون أيـام الله

أشرت فيما سبق إلى أن واقعة إنجاء الله لبني إسرائيل من فرعون وقومه الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب وألوان الإذلال، لما أنها قد أعقبت عند اليهود كفرانهم للنعمة، واستبدالهم الرغبة في اتخاذ إله يعبدونه من دون الله، قد تكرر ذكرها في القرآن الكريم مكيِّه ومدنيِّه، وليس الأمر مقصوراً على سورة الأعراف المكية، الأمر الذي يؤكد أن ما صنعه هؤلاء البغضاء إلى الله ـ وقد فضلهم الله على أهل زمانهم بكلمة التوحيد ـ هي ظاهرة تعكس ما ينطوي عليه اليهود من رغبة عارمة في الجحود، وحرص على اتباع الهوى ولو أوقع ذلك في الشرك والعياذ بالله.

وقد رأينا أن من المواطن التي ذكرت فيها تلك الواقعة سورة إبراهيم، وهي سورة مكية، ذلكم قوله تعالى إخباراً عن موسى عليه السلام فيما قال لقومه بشأنها: ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾** ﴾ [إبراهيم: ٦ – ٨].

وقبل أن نمضي إلى موطن آخر ذكرت فيه الواقعة المشار إليها، أُراني مسوقاً إلى التذكير بأن موسى عليه السلام ـ في خطابه لقومه بهذا الشأن ـ كان ممتثلاً لأمر الله عز وجل فقد أُمِر ـ فيما أُمر به ـ أن يذكِّرهم بأيام الله.

ويومُ نجاة بني إسرائيل من فرعون وقومه؛ من أيام الله التي كان عليهم أن يضعوها موضعها من العبرة وفقه الحوادث، فيستعلن شكر الله فيهم، ويزدادوا إيمانًا بعد الذي رأوا من الآيات التي لا تدع ريبة لمستريب، في أن الله واحد لا شريك له ولا مثيل، وأنه القاهر فوق عباده، ومن ذلك أنه أغرق فرعون وشيعته، وأنجى بني إسرائيل على يد موسى الذي قامت دعوته فيهم على التوحيد.

ولكن بني إسرائيل كانوا على النقيض من ذلك، فكشفت النعمة العظيمة، والآيات الكبار، عن الدخَل الذي تنطوي عليه نفوسهم، فلم يكن منهم بعد ذلك إلا أن استبدلوا السوءى بالحسنى.

والآية التي أمرت موسى عليه السلام بتذكيرهم بأيام الله هي قول الله تعالى في الآية الخامسة من سورة إبراهيم: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** ۝٥﴾ [إبراهيم: ٥] ففي هذه الآية الكريمة يقول ربنا جل جلاله: وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب لتدعو الناس بدعوة الحق، وأن تخرجهم من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بآياتنا ﴿**أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ أي أمرناه قائلين: ادع هؤلاء القوم إلى الخير ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان ﴿**وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ**﴾ وأيام الله: أياديه ونعَمه عليهم في إخراجهم من أسر فرعون وقهره وظلمه ودعوة الناس إلى عبادته، وإنجائه إياهم من عدوهم وفلْقه لهم البحر، وتظليله إياهم بالغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوىٰ، إلى غير ذلك من النعم، روى

ذلك الطبري عن مجاهد وقتادة وغير واحد. وهو ما روى الإمام أحمد في المسند عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ قال: «بنعم الله». ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث محمد بن أبان. وفي رواية عن مجاهد ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ قال: بالنعم التي أنعم بها عليهم، أنجاهم من آل فرعون، وفلق لهم البحر، وظلَّل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى. أما ابن زيد: فروى عنه ابن جرير أنه قال: أيامه التي انتقم فيها من أهل معاصيه من الأمم، خوَّفهم بها وحذرهم إياها، وذكرهم أن يصيبهم ما أصاب الذين من قبلهم.

هذا: وقد ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إن في الأيام التي سلفت بنعمة الله على بني إسرائيل، حين أنقذهم الله من يد فرعون وأنجاهم مما كانوا فيه من العذاب المهين، لعبراً ومواعظ لكل صبار أي في الضراء، كما قال قتادة: «نعم العبد إذا ابتلي صبر، وإذا أعطي شكر». وما قاله قتادة قبس مما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كلَّه خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر، فكان خيراً له» [رواه مسلم وغيره].

وتأولها الطبري – رحمه الله – فقال: ﴿لَآيَاتٍ﴾ لعبراً ومواعظ ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ لكل ذي صبر على طاعة الله، وشكر له على ما أنعم عليه من نعمته.

ومهما يكن من أمر: فإنا إذا تأملنا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ وما سبقه من قوله جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا

﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ نجد أن الأقوال جميعها مما تحتمله الآية الكريمة، لأن كلاً من الصبر والشكر مطلوبان، سيما إذا توافرت الدواعي الملحة، لأنهما مظهر من مظاهر العبودية الصادقة لله عز وجل. وعلى عكس ذلك تماماً كان سلوك اليهود، وما يزال، وما أشبه الليلة بالبارحة.

وهكذا نجد في خاتمة المطاف: أن الآيات الأربع في سورة إبراهيم، بدءاً من الآية الخامسة، تقفنا ـ مع مضموناتها العميقة بعيدة المدى في شأن بني إسرائيل ـ على صورة من صور التكامل المعجز بين الآيات في الموضع الواحد، بحيث يؤدي ـ بجانب عرض الوقائع ـ ما شاء ربنا جل شأنه من الهداية وإنارة السبيل، ولعل في ذكر الآيات الكريمات كلها جملة واحدة، ما يعين على إدراك ذلك بصورة أوفى إن شاء الله ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [إبراهيم: ٥ – ٨].

اللّهم يوماً من أيامك تردُّ فيه الأمة إلى دينها، لتأخذه بقوة وصدق، وتنصرها على عدوك وعدوها، نصراً يفرح به المؤمنون، ويُخزى به المنافقون. لك الحمد في الأولى والآخرة، أنت مولانا، فانصرنا على القوم الكافرين.

ومن يَحْلِلْ عليه غضبي فقد هوى

قادنا الحديث عن منة الله تعالى على بني إسرائيل بإنقاذهم من فرعون وشيعته، الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب، وما جاء في شأن ذلك في سورة الأعراف، وهي من السور المكية، . .قادنا الحديث عن ذلك إلى ما ورد بشأن هذه الواقعة في سورة إبراهيم، ووقفتنا الآيات في السورتين على ظاهرة الكفران والجحود عند بني إسرائيل ورغبتهم الجامحة دائماً في الخروج على الحق والفضيلة، طاعة للأهواء وانقياداً لتسويلات النفوس المريضة الهابطة.

وتنقلنا الخُطا على هذه الساحة، إلى سورة مكية أخرى هي سورة «طه»، لنجد القرآن الكريم يتحدث عن تلكم النعمة العظيمة، نعمة نجاة القوم على يد موسى في عداد غيرها من النعم، ولكن بعد عرض سريع واف كلَّ الوفاء لما حصل من خرق العادة لموسى ـ بإذن الله ـ وهلاك فرعون ومن معه ونجاة بني إسرائيل.

والآيات التي نومي إليها في سورة «طه»، هي قول الله تبارك وتعالى بدءاً من الآية السابعة والسبعين: ﴿ **وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَى ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴿٧٩﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي**

وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه: ٧٧ – ٨٢].

والملاحظ أنه جاء التذكير بمجموعة من النعم في مقدمتها ما كان من نجاة بني إسرائيل – بإذن الله – على يد موسى، وهلاك فرعون وجنوده، حيث كان موسى، ومن معه ينظرون إلى الطاغية وإلى جنده قد غرقوا في صيحة واحدة لم ينج منهم أحد، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [البقرة: ٥٠]، وذكرت هذه النعمة في مقدمة ما ذكر في قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ... ﴾ ووليها ما كان من نعمة الله في مواعدة موسى وبني إسرائيل بعد هلاك فرعون جانب الطور الأيمن، وهو الذي كلمه الله تعالى عليه، وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة هنالك ﴿ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ ﴾.

وفي غضون ذلك، عبد بنو إسرائيل العجل، وهو ما سيأتي ذكره في سورة «طه» التي نسعد بصحبتها من قوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [طه: ٨٨ – ٨٩] والذي نسي هو السامري، إذ ترك ما كان عليه من إسلام الوجه لله عز وجل.

وجاء بعد ذلك التذكير بالنعمة الثالثة، وهي نعمة إنزال المنِّ والسلوىٰ عليهم ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴾. ثم جاء الأمر بأن يأكلوا من طيبات ما رزقهم الله دونما طغيان ولا تجاوز للحدود التي شرعها الله، وإلا حلَّ

عليهم الغضب، ومن يحلل عليه غضب الله فقد هوى. على أن باب التوبة مفتوح لمن كانت توبته نصوحاً وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى. ذلكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى** ﴾.

والواقع أن اليهود لم يدعوا مهواة تتسبب في إنزال غضب الله عليهم، إلا انغمسوا في حمأتها، فحلَّ عليهم غضب الله، وأصابتهم لعناته جل جلاله، إلى يوم الدين.

ها نحن أولاء نقرأ في سورة «المائدة» في شأن هؤلاء المغضوب عليهم، قول الله تعالى: ﴿ **قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾** ﴾ [المائدة: ٦٠ – ٦٢].

وكان من سوء الصنيع، سكوت الربانين والأحبار فيهم عن ارتكاب هذه الموبقات؛ وذلك ما كشفت عنه الآية التي تلي وهي قوله تعالى: ﴿ **لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾** ﴾ [المائدة: ٦٣].

وأنت ترىٰ أن هاتين الآيتين الأخيرتين، تثبتان أن من جملة موبقاتهم التي تنزلت بسببها لعنات الله على رؤوسهم، وتسربلوا غضبه، أن كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان، وأكل السحت، والله تعالى يقول لهم

بعد أن أنزل عليهم المنَّ والسلوىٰ ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾.

لقد طغى القوم، فحلَّ عليهم غضب الله وهَوَوْا في جحيم الشقاء وكانوا من الخاسرين. ونقرأ في الآية الحادية والستين من سورة البقرة قول الله سبحانه ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة: ٦١]. كما نقرأ في سورة آل عمران قوله جل ذكره: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [آل عمران: ١١٢] وإذا كانت هاتان الآيتان من سورتي البقرة وآل عمران تنبئان كلتاهما بوضوح أن اليهود باؤوا بغضب من الله: ففي سورة البقرة أيضاً ما هو أشد من ذلك، وهو أنهم باؤوا بغضب على غضب والعياذ بالله، ذلكم قول الله جل شأنه: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ [البقرة: ٩٠].

وفي سورة الممتحنة نُهي المؤمنون أشد النهي عن موالاة اليهود وجاء التعْبير عن ذلك في الآية التي اختتمت بها السورة وهي قول الله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الممتحنة: ١٣] والمقصود بالقوم الذين غضب الله عليهم: اليهود، وفيما علمنا الله تعالى من

دعائه في سورة الفاتحة من قوله تباركت أسماؤه: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦ – ٧] المغضوب عليهم هم اليهود، والضالون هم النصارى.

ولقد رأينا اقتران الغضب عليهم مع اللعن، وهو الطرد من رحمة الله في الآية التي أوردناها من سورة المائدة آنفاً، وفي كتاب الله كثير من المواطن التي ورد فيها لعنهم، وبعدد من الصيغ.

وأنت ترى أنه كلما ذكرت هذه العقوبة، اقترن ذكرها بالسبب الذي من أجله كانت تلك العقوبة، وهذا محض العدل الرباني، فالله لم يظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، وما أكثر ما اقترفوا واجترحت أيديهم من ضلالات، نالهم بسببها الإبعاد والطرد من رحمة الله القادر القاهر، الرحيم الرحمن.

ففي سورة البقرة يطالعنا قول الله تعالى في شأنهم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ۝٨٨﴾ [البقرة: ٨٨] ونقرأ في سورة النساء قوله عز وجل: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ۝٤٦﴾ [النساء: ٤٦]. أرأيت!! ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ بسبب كفرهم.

وعلى هذا السنن من ذكر طردهم من رحمة الله، مع بيان السبب في ذلك، نقرأ في سورة المائدة قول الله جل وعز: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي

إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

[المائدة: ٧٨، ٧٩].

ألا ما أكثر العبر التي يفيض بها الكتاب والسنة النبوية المطهرة وبخاصة عند الكلام على هؤلاء الأناسي الذين باؤوا بغضب على غضب، فهل نحن معتبرون؟ وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين.

يستبدلون الكفران بالشكر

كانت رحلة مباركة زاخرة بالكثير من العبر والعظات، تلك التي سعدنا معها بوقفات عند عدد من الآيات الكريمات في سور مكية هي: «الأعراف» و«إبراهيم» و«طه». وكان محور الهداية في تلكم الآيات التذكير بما مَنَّ الله به على بني إسرائيل من النجاة من آل فرعون وشيعته، الذين كانوا يذبحون أبناءهم ويتسحيون نساءهم، وإغراق عدوهم. وقد تكرر في الآيات، وهذا ـ والله أعلم ـ من الإعجاز التربوي ـ قوله جل شأنه: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

والحق أن التذكير بالنعم التي يفترض أن تذكر فتشكر، والتنديد بمواقف أصحابها المجافي للحق، ولما يجب أن يكون؛ كما يحمل الحكم على صنيع من استبدلوا الجحود والكفران بالشكر الخالص ـ وهم هنا بنو إسرائيل الذين منَّ الله عليهم بجانب النجاة من فرعون وملئه بإغراق الله له ولأشياعه ـ. الحق أن هذا التذكير كما يحمل الحكم على المخالفين عن أمر الله ورسله بما يستحقون، يحمل الدعوة إلى الاعتبار والعمل على عدم الوقوع فيما وقع فيه أولئك المغضوب عليهم.

وموقع أمتنا من هذه الحقيقة يتجلى في أن تلكم الآيات بما تدل عليه من وقائع، وبما تحمله من مضمونات؛ هي من آيات كتابها الكريم الذي أنزله الله على نبيها محمد ﷺ؛ فالدعوة إلى التنبه واليقظة والبعد عن

كل ما يمت إلى صنيع اليهود بصلة آكد وآكد.. وأهل الخشية يذكرون، ويعتبرون ذلك من مقتضيات صدق الإيمان وإخلاص العبادة لله عز وجل.

والمتتبع لآي الكتاب الكريم، يجد أن التذكير بتلكم النعم التي قابلها بنو إسرائيل بالجحود والكفران، لم يقتصر على الآيات المكية، كما سبقت الإشارة من قبل، بل امتد إلى العهد المدني، حيث خوطب اليهود في عهد الرسول ﷺ بما أُنعم على آبائهم من قبل، تذكيراً لهم بنعمة الله تعالى ليؤمنوا بمحمد ﷺ ويكونوا من المسلمين.

ذلكم ما يتلو التالي في سورة البقرة ـ وهي أطول السور المدنية ـ بدءاً من الآية السابعة والأربعين قول الله جل وعز: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [البقرة: ٤٧ - ٥٢].

والخطاب ـ كما أسلفت من قريب ـ في قوله تعالى ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ لليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجر النبي ﷺ، لأن الطينة واحدة، والتوجه واحد، والذين وجدوا منهم في عصر النبي عليه الصلاة والسلام راضون كل الرضىٰ عما كان عليه آباؤهم من المجافاة للدين، وإغضاب رب العالمين، مع أن

التذكير بالنعم التي تفضل الله بها على الآباء، يفترض أن ترتفع بالأبناء ـ أن لو عقلوا ـ إلى مستوى الإيمان الصادق، والشكر الذي ينعكس على التصرفات والسلوك.

هذا وقد جاء التذكير بعد قوله سبحانه: ﴿**اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ**﴾، بواحدة من تلك النعم وهي أنه فضلهم على العالمين فقال: ﴿**وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ والمقصود أنه فضَّل أسلافهم على عالمي زمانهم، كما أشرنا في وقفة سبقت. قال الإمام الطبري في تفسيره (جامع البيان): ويعني بقوله: ﴿**وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ أني فضلت أسلافكم؛ فنسب نعمه على آبائهم وأسلافهم، إلى أنها نعم منه عليهم، إذ كانت مآثر الآباء مآثر للأبناء، والنعم عند الآباء، نعماً عند الأبناء، لكون الأبناء من الآباء.

وهذا التعبير في قوله تعالى: ﴿**وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ قد خرج مُخرج العموم والمراد به الخصوص؛ لأن المعنى: (وأني فضلتكم على عالم كنتم بين ظهرانيه وفي زمانه) وقد أورد ابن جرير – رحمه الله – عدداً من الروايات عن قتادة وأبي العالية ومجاهد وابن زيد، تكشف عن أن الآية خرجت مخرج العموم ولكن أريد بها الخصوص. فقد روى قتادة أنه قال: فضلهم على عالم ذلك الزمان. ورُوي عن أبي العالية ﴿**وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ قال: بما أُعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان في ذلك الزمان، فإن لكل زمان عالماً.

ورُوي عن مجاهد أنه قال: على من هم بين ظهرانيْه، كما رُوي عن

ابن وهب أنه قال: سألت ابن زيد عن قول الله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ قال: عالم ذلك الزمان، وقرأ قول الله ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الدخان: ٣٢] قال: هذه لمن أطاعه واتبع أمره، وقد كان فيهم القردة ومن هم أبغض خلقه إليه، وقال لهذه الأمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] قال: هذه لمن أطاع الله، واتبع أمره، واجتنب محارمه.

قال الحافظ ابن كثير بعد أن أشار إلى هذه الروايات: (ويجب الحمل على هذا، لأن هذه الأمة أفضل منهم لقوله تعالى خطاباً لهذه الأمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٠]).

ومما يؤكد أن الآية مرادٌ بها الخصوص الذي نذكره، من أن التفضيل كان على عالمي زمانهم، ما جاء في المسانيد والسنن كما عند أحمد والترمذي والحاكم وغيرهم – عن معاوية بن حيدة القشيري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجلَّ) وروى الطبري بسنده عن بهز ابن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا إنكم وفَّيتم سبعين أمة» قال يعقوب في حديثه: أنتم آخرها وقال الحسن: «أنتم خيرها وأكرمها على الله».

ثم إن إبراهيم الخليل عليه السلام: قبلهم. وهو أفضل من جميع

أنبيائهم، ومحمد صلوات الله وسلامه عليه: بعدهم. وهو أفضل من الخلق جميعهم وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة عليه الصلاة والسلام.

ولعل من الخير أن نذكر هنا بأن أمتنا ـ وهي خير أمة أخرجت للناس ـ عندما تخلت عن موقعها القيادي، ومالت عن الصراط الذي به تتبوأ تلك المنزلة العظيمة، من الخيرية العامة والشهادة على الناس: حلَّ، بها ما حلَّ وأن الذين ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب على غضب يهددونها في عقر دارها ويسيطرون على المسجد الأقصى ثالث الحرمين، فهل إلى تذكرة تعيد الأمور إلى نصابها من سبيل؟ اللَّهم إنك المعين على ذلك والقادر عليه. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وأضلَّهم السّامريّ

- ١ -

ظاهرة تطلع اليهود إلى اتخاذ إله من دون الله، بُعَيْد إنعام الله جل شأنه عليهم بتجاوز البحر، وإنقاذهم من فرعون وشيعته الظالمين، مضافاً إلى ذلك إصرارهم على الانحراف عن التوحيد مع دعوىٰ الإيمان.. كل أولئك وما هو منه بسبيل في سلوكهم، يدل ـ فيما يدل ـ على خراب النفوس وعمى القلوب التي في الصدور، ويشي بوجوب الاحتراس والحذر الشديدين من دعاوىٰ يهود ووعودهم، والتنبه إلى الانحراف الجذري المتأصل، وما تنطوي عليه الصدور من باطنية عمياء، لا تدع في الشر والإفساد زيادة لمستزيد. لقد قال لهم موسى عليه السلام: إنكم قوم تجهلون. وكشف عن حقيقة من أرادوا تقليدهم، وما أرادوا تقليدهم فيه؛ ذلكم ما جاء في قول الله تبارك وتعالى على لسانه ﷺ: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأعراف: ١٣٩].

وفي متابعة للرحلة مع تلكم الخلائق، نسعد باصطحاب كلمات هاديات من العهد المكي أيضاً، تكشف لنا عن موقف آخر، لأولئك الناس أشد ضلالاً وأعتى.

وذلك أنهم خانوا العهد من بعد موسى، حين ذهب إلى الجبل للمناجاة، فعبدوا إلها من دون الله، حيث اتخذوا من حليِّهم عجلاً جسداً

له خوار... وعكفوا على عبادته، متعامين عن أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً، اتخذوه وكانوا ظالمين.

ذلكم ما نقرأ في سورة الأعراف، وفي أعقاب الآيات التي كشفت عن موقف بني إسرائيل الذي ألمحنا إليه في صدر هذا الحديث، من قول الله تبارك وتعالى في الآية الثانية والأربعين بعد المائة: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف: ١٤٢].

ففي هذه الآية الكريمة، يمنُّ الله تعالى على بني إسرائيل، بما حصل لهم من الهداية بتكليمه موسى عليه السلام، وإعطائه التوراة وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم، فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة، قال المفسرون: فصامها موسى عليه السلام وطواها، فلما تم الميقات، استاك بلحاء شجرة، فأمره الله جل شأنه أن يكمل العشرة أربعين، والأكثرون على أن الثلاثين هي ذو القعْدة، والعشرَ عشرُ ذي الحجة، رُوي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقاله مجاهد ومسروق وابن جريح.

فلما تم الميقات، وعزم موسى على الذهاب إلى الطور، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴿٨٠﴾﴾ [طه: ٨٠] فحينئذ استخلف أخاه هارون على بني إسرائيل، ووصاه بالإصلاح، ونهاه عن اتباع سبيل المفسدين بموافقتهم على المعاصي. وهذا تنبيه، وتذكير من موسى عليه السلام، يدل على مقدار تخوفه مما يمكن أن يصنع بنو إسرائيل، وما

يريده من أخيه من الحيطة بشأن ذلك، وإلا فهارون عليه السلام نبي شريف كريم على الله، لا يحيد عن الطريق التي تتناسب مع وجاهته وعظيم فضله، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء.

هكذا تم الميقات، وذهب موسى عليه السلام للمناجاة، بعد أن استخلف أخاه ووصاه، وكان ما كان من الخير في تلكم المناجاة.

وتمضي بنا الآيات في تلك السورة المكية، سورة الأعراف، فإذا بها تكشف للمسلمين ـ في تلك الحقبة المبكرة من عمر الدعوة ـ عما وقع فيه قوم موسى من الضلال والعتو عن أمر الله في غيبة نبيهم عليه السلام. ذلكم ما نجده في الآية السابعة والأربعين بعد المائة من قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأعراف: ١٤٨].

والعجل المشار إليه، اتخذه لهم السامري من حُليِّ القبط الذي كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلاً ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام، فصار عجلاً جسداً له خوار، كما جاء تفصيل ذلك في سورة طه. والخوار: صوت البقر.

وواضح أن الآية ـ كما تكشف عن ضلال من ضل في عبادة العجل والعياذ بالله ـ كذلك تحمل الإنكار الشديد عليهم في ضلالهم بهذا المعبود وذهولهم عن خالق السماوات والأرض ورب كل شيء ومليكه، أن عبدوا معه عجلاً جسداً له خوار. لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً﴾ وجاء في سورة طه ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ

﴿يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: ٨٩] لقد استغرقتهم الضلالة المثيرة، فعموا وصمَّوا عن أبسط ما يدل عليه العقل السليم، إذ كيف يستقيم مع هذا العقل المدَّعى، أن يعبدوا من دون الله الخالق القادر، ما لا يكلمهم ولا يهديهم إلى خير، بل لا يرجع إليهم قولاً، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً.. ولكن أين الرؤية؟ لقد غطَّى على أعين بصائرهم عمى الجهالة والضلالة.. من أجل ذلك عموا وصموا ووقعوا في تلك المهواة، نعوذ بالله منها ومن أهلها. روى الإمام أحمد وأبو داود عن أبي الدرداء – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال: «حبك الشيء يعمي ويُصم».

من أجل ذلك، حكم الله عليهم بالظلم فيما صنعوا، فقال سبحانه: ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾. إذ لم يكن لهم أي عذر في ذلك الإنحراف، وأين العذر مع وجود الأدلة القاطعة بأن الله هو الخالق القادر الحكيم، والآيات الباهرة بأنه لا معبود بحق سواه جل جلاله، فعندما ينصرف المرء عن الأدلة الواضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، ويهمل عقله، ويغرق في اتباع الهوى، يكون ظالماً لنفسه وللحقيقة لا محالة.. وهؤلاء المغضوب عليهم، أعرضوا عن كل ما يدعو إلى الثبات على الإيمان، وعبدوا ما صنعه لهم السامري من دون الله.

هذا: وكان من عدالة الله تبارك وتعالى، أن أخبر القرآن الكريم عن أولئك الذين ندموا على ما فعلوا، وشعروا بأنهم ضلوا، فتوجهوا إلى الله بطلب المغفرة والرحمة، نقرأ في ذلك قوله تعالى بعد الآية السابقة:

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٩]. فسبحان من حكمه العدل ولا يظلم ربك أحداً.

.. وأضلَّهم السَّامريّ

- ٢ -

كنا في الصفحات السالفات مع آيات من سورة الأعراف، دلَّت على ما يؤكد زلزلة القلوب وعمى البصائر عند بني إسرائيل، يوم خانوا العهد، ووقعوا في عماية الشرك في غيبة موسى عليه السلام عنهم ـ مستخلفاً أخاه هارون فيهم ـ حين ذهب إلى الجبل للمناجاة الكريمة التي أكرمه بها ربه سبحانه وتعالى، حيث اتخذوا من بعده عجلاً جسداً له خوار، عبدوه من دون الله. ذلكم قول الله تباركت أسماؤه: ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وما جاء في الآيتين الثامنة والأربعين بعد المائة والتاسعة والأربعين بعد المائة من قول الله جل شأنه: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٨ – ١٤٩].

وهذه الآيات البينات تقودنا ـ وهي تكشف عن ذلك الموقف الناقض للإيمان بالله بعد أن ذهب موسى عليه السلام إلى المناجاة ـ إلى متابعة ما حصل والإحاطة بأطراف القضية من هنا وهناك، وها هي الآيات التي

تضع أيدينا على الحقيقة؛ ففي أعقاب الآية التاسعة والأربعين بعد المائة، يطالعنا قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف: ١٥٠ - ١٥١].

موسى عليه السلام ـ وهو صاحب رسالة عمادها توحيد الله تبارك وتعالى وإفراده بالعبودية ـ أغضبه أشد الغضب صنيعُ بني إسرائيل في اتخاذهم العجل معبوداً يعبدونه، وقال لهم بعد أن رجع إليهم ـ وهو على هذه الحال ـ: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾: بئس ما صنعتم من عبادة العجل بعد أن ذهبت إلى الجبل للمناجاة وتركتكم.

ومما يجدر ذكره، أن موسى عليه السلام قد أعلمه الله بما وقع فيه القوم من الضلالة العمياء وهو على الطور، وذلك ما نجده في سورة طه. يقول الله تعالى إخباراً عن نفسه جل شأنه: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾ [طه: ٨٥] وإخباراً عما قاله عليه السلام للقوم: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي استعجلتم مجيئي إليكم وهو مقدَّر من الله تبارك وتعالى وكل شيء عنده بحسبان؟ وألقى الألواح غضباً عليهم لعبادتهم العجل. وإلقاء موسى الألواح لهذا السبب ـ وهو الغضب على قومه ـ هو ما عليه الأكثرون. وقرر الإمام الطبري أنه الأولى بالصواب من القول.

ولم يكن عجباً من العجب، أن يعتب موسى على أخيه هارون بادئ

ذي بدء قبل أن تنكشف له الأمور ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ ـ وقد أوصاه من قبل وشدَّد في الوصية ـ ﴿يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ خوفاً أن يكون قصَّر في نهيهم، فكان من جواب هارون عليه السلام، ما دلَّ على أنه لم يقصِّر في نهي بني إسرائيل عن الولوغ في الضلال الذي جرَّهم إليه السامريُّ. ولكنهم ـ بدل أن يستمعوا إليه وينتهوا عما نهاهم عنه ـ استضعفوه وكادوا يقتلونه. وهذه واحدة من رزاياهم وما أكثرها.

وهكذا كان الأمر في غاية الوضوح، كما جاء في الآية الكريمة على لسان هارون عليه السلام خطاباً لأخيه موسى ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

لقد طلب هارون من أخيه ـ عليهما السلام ـ بناءً على ما كشف له عن موقفهم المخزي، أن لا يسوقه سياقهم ويجعله معهم؛ فهم في وادٍ وهو في وادٍ.

والناظر في هذا الحوار بين هارون وموسى: يجد أن خطاب هارون لموسى قد امتزج بندى الرقة والاستعطاف، حيث قال: ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ ليكون أرق وأنجع عند أخيه موسى عليه السلام، وإلا فهو شقيقه لأمه وأبيه، مع ملاحظة أن عتب موسى على هارون، قد يكون لأنه ترك اتباعه وأقام في الموضع الذي ترك القوم فيه، وكان منهم ما كان، كما قال جل ثناؤه مخبراً عن قيل موسى له: ﴿أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه: ٩٣ - ٩٤].

وقد اتضح أنه لما تحقق موسى براءة أخيه من التقصير كما قال تعالى في سورة طه: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾﴾ [طه: ٩٠] لما تحقق عليه السلام ذلك ـ ورسل الله سادة المنصفين ـ دعا ربه تعالى لنفسه ولأخيه جميعاً بالمغفرة والرحمة ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف: ١٥١].

وجميل ما نرىٰ عند الطبري شيخ المفسرين في تأويل هذه الآية، إذ قال – رحمه الله –: (يقول تعالى ذكره: قال موسى لما تبين له عذر أخيه وعلم أنه لم يفرط في الواجب الذي كان عليه من أمر الله في ارتكاب ما فعله الجهلة من عبدة العجل: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي﴾ مستغفراً من فعله بأخيه، ولأخيه من سالف سلف بينه وبين الله: تغمد ذنوبنا بستر منك تسترها به ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ يقول: وارحمنا برحمتك الواسعة عبادَك المؤمنين، فإنك أنت أرحم بعبادك من كل من رحم شيئاً).

وهنا ما بد من الإشارة إلى قاعدة نورانية نجدها في السنة المطهرة، تتعلق بإلقاء موسى الألواح، بعد أن عاد إلى قومه غضبان أسفاً، وهي أنه ليس المعاين كالمخبَر؛ فقد أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله موسى ليس المعاين كالمخبَر، أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح».

فصلاة الله وسلامه على نبينا محمد رحمة العالمين ومعلم الناس الخير،

وعلى سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين. ونسأله تعالى أن يهيء لأمة الإسلام من أمرها رشداً. وأن يردها إلى الطريق الذي تضيء شعابه في كل زمان ومكان هداية الكتاب الكريم والسنة المطهرة، كيما تتجاوز الواقع إلى ما يجب أن يكون، وتتعامل مع أعداء الله ـ وفي مقدمتهم اليهود ـ بالطريقة الواجب اتباعها، والله ولي الصابرين المجاهدين.